عين شمس

سعود بن حامد الصاعدي

عين شمس

روايـــــة

دار الفارابي

الكتاب: عين شمس
المؤلف: سعود بن حامد الصاعدي
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ – الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: أيلول ٢٠١٧

ISBN:978-614-432-780-7

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

المحتويات

الإهداء ٩

مَشْرِق [*]** ١٣

الفصل الأوّل: زمن الأمشاج ١٩

الفصل الثاني: زمن التكوين ٤٥

الفصل الثالث: زمن التركيب ٧٣

الفصل الرابع: زمن الاستواء ١٢٩

حكاية المخطوط: [اللوح الأوّل] ١٣١

[اللوح الثاني] ١٣٥

[اللوح الثالث] ١٣٧

[اللوح الرابع] ١٤٠

[اللوح الخامس] ١٤٤

[اللوح السادس] ١٤٧

[اللوح السابع] ١٥٠

[اللوح الثامن] ١٥٣

الفصل الخامس: زمن التخمين ١٥٥
ما بعد المخطوط ١٥٧
الفصل السادس: زمن التقويم ١٨١
الفصل السابع: زمن التأويل ما لم يصله الماء من المخطوط ... ٢١٣
مَغْرِب [*] ٢١٩
[**] ٢٢٤
[***] ٢٢٧
[****] ٢٢٩
[*****] ٢٣٢
[*******] ٢٣٥
أوَّلُ النبع ٢٣٧
صدر للكاتب ٢٣٩

الإهداء

إلى بئرٍ (معطّلة) وقصرٍ (مشيَّد)!

فليت طالعةَ الشمسينِ ما طلعتْ   وليت غائبةَ الشمسينِ لـم تغبِ

المتنبّي

مَشْرِق

[★★★]

سحَب نَفَسًا طويلاً من ليّ شيشته، وبعد أن التفت إلى رفاقه في المقهى الصغير بقرية عين شمس، نفث سحابة كثيفةً في الأفق. تركها حتى تلمّ فلولها وتغيب عن الأنظار، ثم شرع يقول:

«في عمق هذا الدخان أرى أزمنة الشمس السبعة.. أرى قريتنا البعيدة في ضباب كثيف تتدلّى من عذق منسيّ، لم يقطفه العابرون من الرحّالة.. سوى امرأة».

كان مرعي يقترب من الستين. لا يظهر لرائيه سوى أنه مسكونٌ بالحكايات الغريبة ومحاولة فلسفتها على طريقة ابن خلدون. هيئته الظاهرة لا تشي بقارىء عميق على ما يظهر من موضة العصر التي تشترط النظارة السميكة. عيناه بارزتان بشكل ظاهر، ورأسه أشيب إلا من شعيرات سوداء في أنحائه أوشكت أن تسلم نفسها للّون الأبيض. ابتسامته تعقبها قهقهة يبرز من خلالها فم فوضويّ الأسنان.

أهل القرية يسمّونه فيلسوفًا استنادًا إلى حديثه المختلف، وإلى

دخوله في أجواء غرائبية، خصوصًا حين يتعلّق الأمر بالبئر المهجورة منذ دهور في طرف القرية الشمالي.

كان وهو يتحدّث عن البئر يوغل في الحديث حتى يختفي عن الأنظار كأنما يتدلّى في عمقها. يحكي كل ما يخطر بباله، عن أيّ شيء. أحيانًا يتحوّل إلى صوت مطلق يتشكّل في هيئة: نباح، عواء، نعيق، ثغاء.

تعود هذه الأصوات بكثير من حكايات القرية المخبوءة في البئر. حينئذ يبدأ ينضح عرقًا كالدلو حين يفيض ماء بعد رحلة عميقة في دهاليز البئر. البئر تشكّل ذاكرته على نحو لا يستطيع الفكاك منه ؛إذ يحيل كلّ ما يريد شرحه إلى فوهة البئر، في حديثٍ يعبر الأزمنة بسرعة الضوء، منذ أوّل ضربة على الأرض إلى آخر ضربةٍ استجاب لها الماء.

يشرح دائمًا هذا الموقف بأنّه معنى من معاني الدحو واستخراج الأشياء النفيسة من معادنها، ثم يعقّب بثقةٍ، بعد نفثة دخانية كثيفة:

«الماء معدن الأشياء».

روّاد المقهى العابرون يتحيّنون فرصة قدومه قبل أن تبتلعهم الطرقات ؛ليصغوا إلى حديثه عن الأزمنة السبعة، أزمنة الشمس التي يجعلها كلما حضر إلى المقهى علامة على كل براد بنكهة مختلفة.

نادل المقهى يحتفي به عند قدومه، ويعرف عنه أسرارًا لا يعرفها مرتادو مقهاه، ولا يعرفها حتى أهالي القرية المنسيّة على قارعة الطريق. يقول للنادل:

«أنت الوحيد الذي يشعر بقدومي قبل أن أحضر.. وهذا يعطيك تذكرة عبور إلى ذاكرتي، لتستقرّ فيها كأيّ إنسان سقط من ذاكرة الناس ودهسه العابرون».

يبتسم النادل، ثم يجري سريعاً باتجاه الموقد، ليعود إليه برأس شيشته مضيئاً كالعادة.

على أطراف الضوء.. يجلس مطمئناً، ثم يشرع في حكاياته الغرائبية. يتحدّث عن قرية عين شمس. كيف نبتت من رحم امرأة عابرة، ثم يستدرك:

«لم تكن ولادتها سفاحاً».

يعود إلى البئر التي يراها أشبه بسرّ امرأة عميق.

«السر الوحيد الذي لا ينبغي أن تبوح به المرأة هو هذا الذي يفضي إلى أعماقها».

يتابع حديثه، وهو يشير إلى البئر المهجورة في طرف القرية..

«على حافة البئر يمكن للمرء أن يصغي إلى حكايات كثيرة شرط أن ينصت بعمق إلى الصوت الصادر من الأعماق».

في تفاصيل القرية لا يبدو أكثر من رجل عابر يسرده الزمن كغيره من العابرين، لكنه، في الحقيقة، أكثر من ذلك، فقد درس وتخرّج في جامعة عريقة، ثم أضاف إلى ذلك قراءات في التاريخ والحضارة والفلسفة.

سافر خارج الوطن.. والتقى مثقفين كثيرين في المقاهي النابتة

على أرصفة العواصم، حتى صار يعشق السفر لهذا الغرض فحسب: أن يلتقي صديقه الذي جاد به أحد المقاهي، ومنه ورث هذه الطريقة في تحويل الناس إلى موادّ لحكاياته الغرائبية وبحثه في أرحام القرى المنسيّة.

كان صديقه عرمان لا يحكي إلا بعد أن يأذن له غليونه بنفثة دخان كثيفة. استحال هذا الغليون في يده، حين عاد إلى القرية، إلى شيشة معشّنة. يقول:

«الغليون أداة قصّ قد لا تسرد بالطول الذي يمكن للشيشة أن تفعله..».

كان يرى الغليون في فم صديقه عرمان لا يوغل في الحديث أكثر، على العكس من الشيشة التي يهب لها صوت الماء مسافة أطول. يعشق الشيشة إلى درجة أنّه يراها ملكة المقهى وملهمة الحكايات.

قبل الفناء فيها يشرع في وصفها بصوت عالٍ:

«معتدلة القوام، شامخة، نقوش حنّائها تعيد إلى اللون الأصفر قيمته المعدنية الضاربة في أعماق الأرض. تاجها الملتهب هو سرّ شموخها الذي يزيده الدخان غموضًا. هي امرأة تجمّدت عشقًا عند أوّل قبلة دخانية، ثم التفّت في غموضها كأي امرأة لا تتحقّق. تمنح صاحبها السفر عبر بوابة الدخان إلى عالمها السحري. صوتها عزف الماء العميق في باطن الحياة، وحكاياتها عوالم تنضج على أطراف اللهب».

حين يصفه رفاقه في المقهى بالعاشق المفرط في غرام شيشته؛ يبتسم محتقرًا هذا الفهم السطحي لعلاقته بها، إذ يؤكد لهم أنه لا يتحدّث عن الشيشة التي تنفث دخانها المعشّن، بل يتحدث عن امرأة غائبة في ظلال هذا الدخان الكثيف، فهي التي يعتني بوصفها. أمّا هذه الشيشة التي يرون فهي ليست سوى جسد دخاني يعبره إلى المرأة المشتعلة في آخر الرمق.

من صديقه عرمان، الرجل العجوز النابت في هيئته النحيلة وصوته الثخين، تعلّم فلسفة لا تبعد عن فلسفة ابن خلدون في فهم أعمار الحضارات والمدن، لكنه اتجه بها إلى القرى المنسيّة، وعن طريقه ابتكر ما يسمى بالأزمنة السبعة في العبور إلى الكائنات الجغرافية، التي من خلالها يستطيع قراءة تاريخ كل القرى المنسيّة.. النائمة على قارعة الطرق.

في مقهى قرية عين شمس يحدث أن يتقمّص شخصية عرمان ثم يوغل في الزمن العميق بين الماء والدخان. يستحيل المقهى أثناء حكاياته إلى حافة بئر مهجورة، فيشعر حينئذ أنّه الوحيد الذي يعرف أسرار الماء ؛إذ يقطع الطريق بين تاج شيشته المزهوّ وذاكرته المثخنة بالحكايات.

الفصل الأوّل

زمن الأمشاج

- ١ -

حين انزلق إلى الحياة، بتلك الطريقة الغريبة، قالت القابلة لأمه: «سيكون لطفلك هذا شأن».

كانت تعتقد أن الذين يخرجون إلى الدنيا بهذه السرعة، لديهم نبأ ما، يريدون قوله للآخرين.

لم تتحقق نبوءة القابلة إلا بشكل ظاهر، حيث كان «مرعي» عَجِلاً في كل شيء، حتى إن أمه كانت تقول لأبيه وهي تشعر بشيء من القلق: «ابنك هذا سيعبر طفولته كومضة البرق، وهذا ليس في مصلحته».

قالت هذا بناء على وصية الطبيب لها:

«اتركي ابنك يعيش طفولته كما هي، واحذري أن تشوّهيها بأفكار الكبار».

ومنذ ذلك الحين وأمه لا تعاتبه حتى حين يتجاوز على الآخرين، أو على ممتلكاتهم. أحدهم كان يعلّق على هيئة مرعي بأنها هيئة طفل شقي ماكر من حدقتيه اللتين تجوسان المكان من جميع جهاته؛ والحقيقة أن مرعي كغيره من الأطفال، يعيش طفولته ببراءة كاملة، غير أن وصية الطبيب لأمه هي التي جعلته يزداد «شقاوة» فاق بها أقرانه فترة

من الوقت، ثم ما لبث أن عاد إلى هدوء تغيرت بسببه نظرة الأهالي إليه إلى الحدّ الذي لمحوا في مستقبله ما يبهج، بمن فيهم أمه سلمى التي كانت تتعهده بحذر كاد يلغي وجوده في الحياة.

كان الطبيب يرى أن كل ما يفعله الأطفال هو بذور لمشروع حياة قادمة، وأن الطفل الهيّاب يظل مشروع رجل غير مكتمل. آمنت سلمى بفكرة الطبيب، رغم أنها فهمتها بشكل خاطئ، فأرادت أن يسير مرعي في طريق مشروعه حتى لو كان ذلك على حساب أهل القرية.

ذات مساء وهي تنظر إلى قامته القصيرة قياسًا بأقرانه من الأطفال، وإلى وجهه الخالي من نتوءات الزمن إلا من بعض خربشات طرية لأظفار رفاقه أثناء الخصومات، قالت في نفسها:

«الأطفال القصار ينضجون من الداخل قبل أقرانهم».

هذه القاعدة استقتها أيضًا من طبيب الأطفال الخاص، الذي التقته، مصادفة، في عيادة منزوية في أحد أبراج المدينة، وهي عائدة إلى القرية، ما جعلها تحتفظ ببطاقة التواصل، فصارت تزور عيادته كلما نزلت المدينة، وكان الأمر، بطبيعة الحال، لا يكلفها أكثر من مسافة نصف ساعة تقطعها مع سائق القرية المتكفل بكل ما يحتاج إليه أهالي القرية من المدينة، بإيجار شهري يدفعه الآباء المشغولون بأعمالهم.

تولي سلمى اهتمامًا بابنها الوحيد مرعي من بين خمس فتيات، الأمر الذي جعله محظيًا عند أمه، وعلى العكس مما هو متوقع فقد كانت طفولة مرعي خالية من طباع الفتيات اللائي يغلبن بصفاتهن، في

مثل هذه الحالة، الولد الوحيد في الأسرة، لكن مرعي استطاع أن يقاوم الأنوثة الطاغية في المنزل بشعوره أنه الرجل الوحيد في البيت،و كان انشغال أبيه بأعماله داعمًا له في هذا الاتجاه.

ومع أنه لا يزال طفلاً إلا أنه شعر بحاجة المنزل إليه في وقت مبكّر، حيث كان يذهب إلى سوق المدينة مع أمه التي لا تسمح له بالخروج مع رجال القرية لصغر سنه، حتى بعد أن بلغ سن العاشرة. كانت هذه السن بالنسبة إلى أولاد القرية تقف على أعتاب مرحلة تحمّل المسؤولية فيما يخص ضروريات المنزل والمتاجرة ببعض ما تنتجه القرية من مزارعها وحظائرها، بيد أن الأمر بالنسبة إلى مرعي مختلف، بسبب حرص أمه الشديد على أن يبقى قيد طفولته وتحت رعايتها حتى يعيش طفولته بكل تفاصيلها كما أوصى الطبيب.

كانت وصية الطبيب تعني أن يكبر كما يكبر الأطفال وأن يعيش كما يعيشون، تحت إملاء ما يسمى، بعالم الطفولة، ذلك العالم الذي يؤكد فيه الأطباء النفسيون ضرورة أن تنمو فيه مخيلة الطفل من خلال اللعب والعبث بالأشياء، أي تفكيكها وتركيبها وإعادة إنتاجها، لأن ذلك يمكّن الطفل مستقبلاً من فهم العالم والتأثير فيه، ولأن الطفل السلبي الذي لا يتفاعل مع العالم من حوله يكبر بمعزل عن العالم وحين يحاول، بعد ذلك، الدخول فيه والتفاعل معه لا يتمكّن من ذلك بسبب فقر مخيلته التي لم تتزوّد بما حولها في مرحلة التخصيب والتكوين.

لم يكن عقل سلمى يستوعب مثل هذه الرؤى النفسية، وهذا ما جعل الطبيب يختزل كل هذه التفاصيل في عبارة موجزة قالها في وصيته لها: «اتركي ابنك يعيش طفولته كما هي ولا تشوّهيها بأفكار الكبار»، فكان أن فتحت له الباب على مصراعيه ليكون طفلاً شقيًا، وفي الوقت نفسه محاطًا بمعصميها عن الذهاب إلى مجالس الكبار أو حتى الاقتراب منها أو الذهاب معهم، برغم أن أقرانه الذين بلغوا التاسعة، أو العاشرة مثله، انضموا إلى سوق القرية ومنها إلى سوق المدينة، وقد حمل مرعي وحده من بين أقرانه أعباء وصية الطبيب وحرص أمه؛ فصار الصبيان الذين يشعرون أنهم كبروا يعيّرونه بأنه أخو البنات، وكثيرًا ما ينشدون حين يرونه، تقريعًا له، «أبو البنات/ مبحبحات/ دقوا له شوكة وجريّات»، وقد ترك هذا النشيد الطفولي أثره في مرعي؛ فنبت بطريقة مغايرة لما توحي به تفاصيل طفولته الأولى في قرية عين شمس.

- ٢ -

كانت أحاديث الناس في القرية، فور عودة سلمى، بوليدها الجديد، تدور حول ما شاع من أن ولادته كانت يسيرة جدًا، وأنها تختلف عن ولادات النساء في القرية، بمن فيهن سلمى مع بناتها الخمس.

يعزو كثير من النسوة ذلك إلى النظام الغذائي الذي انتهجته سلمى هذه المرة بعد أن نالت اهتمامًا كبيرًا من زوجها الذي فتح الله عليه في الرزق، فاهتم بمتابعة المولود الجديد اهتمامًا لفت أنظار أهل القرية .

علّقت إحدى النسوة على هذه الولادة الاستثنائية بعتاب شديد على رجال القرية الذين لا يلتفتون إلى زوجاتهم كما يفعل فهيد مع زوجته سلمى، وهي تعني برجال القرية زوجها الذي يقضي جل يومه خارج القرية بحثًا عن الرزق عابرًا الطرق السريعة بحافلته مع من يجمعه من الركاب الذين يأتون للزيارة في فترة العمرة، أو في موسم الحج؛ ومع أنها تدرك عذر زوجها وحرصه على أن يصل بها وبأولادها إلى ما وصل إليه فهيد، إلا أنها كانت ترى فيه حظها العاثر الذي يبدو أنه

يسير ببطء في حافلة رديئة، مفككة الأوصال، تدب في طريق المدينة كماعز هزيلة تبحث عن كلأ يابس في فلاة مقفرة.

عادت سلمى محاطة بعناية زوجها وأهازيج فتياتها الخمس، وفرح والدتها العجوز، وكانوا قد أعدُّوا لها مكانًا في طرف البيت لاستقبال الزائرات وتلقّي التبريكات بالضيف الجديد.

بدا مرعي في لفافته كجرو صغير، لا تظهر من ملامحه سوى حمرة شديدة وعينين مغمضتين وفروة رأس وافرة الشعر كانت هي موضع الانتباه ومبدأ أحاديث النساء أثناء زيارتهن، فجل التعليقات تتفق على أنه يشبه أباه، وأنه سيكون رجلاً وافر الشعر كأعمامه، وكانت أكثر التشبيهات تذهب به إلى أعمامه الذين يبدو أنهم يتمتعون بهذه الصفة الخاصة في القرية، وهو ما جعل ذلك محل حفاوة سلمى التي ترى في وفرة شعر فهيد الموزع على أنحاء جسده موضع جاذبيته، وقد سعدت بكل ما سمعته، مع أن «مرعي» جاء في صفاته مخالفًا لأخواته الخمس، حيث تذكر سلمى لكل من زارها، بشيء من الغبطة والزهو، أن فروة رأس وليدها الجديد، كانت تكفي لتوزيعها على أخواته الخمس اللائي ولدن بلا شعر، على غير المعتاد، ولولا عنايتها برؤوسهن حلاقة ورعاية بالدهون، لاختلطت رؤوسهن برؤوس الرجال.

كان ذلك موضع تندّر وسخرية تنشأ بسببه دعابات تنطوي أكثرها على أن زوجها فهيد كان قد تولى دورها أثناء الحمل فظهرت آثار ذلك على ابنه الذي اختار أعمامه دون أخواله، فكان أشبه بهم.

لم تكن سلمى تنزعج من كل ما يقال عن وليدها، أثناء تلك المقارنات بين الأعمام والأخوال في مثل هذه الظروف، ففرحتها بمرعي جعلتها أكثر تسامحًا، وملأت عليها الدنيا بالأهازيج، حتى إنها لم تكن تفطن إلى تلك الكلمات العابرة التي تحمل قليلاً من الغيظ وكثيرًا من الحسد المكبوت، خصوصًا فيما يتعلق بحظها الذي يتمثل في زوجها التاجر وعنايته بها إلى درجة أعادتها عروسًا بعد ستة بطون.

ذكرت لمن حولها أن فهيد هو من اختار لابنه اسم «مرعي» تيمنًا بالجد الأول، الذي يختفي وراء سلسلة طويلة من النسب، لكن فهيد أراد أن يستلّه من هناك ليجعله في الواجهة كي تعود ذكريات جده البعيد في ابنه القريب.

كان جده مرعي، بحسب ما يذكر رواة القبائل، فارسًا وصاحب رأي، وقد تيتّم مبكرًا حين فقد أباه في زمن الجدري، لكنه قام بحمل الأسرة، والقبيلة من بعد، فصار منذ ذلك الحين يحمل لقب مرعي، الذي أزاح اسمه الأول بويتع، وقد عاش شبابه يحمل اسم بويتع حتى ذاعت خصاله الحميدة، وصارت فروسيته وحكمته السديدة في القضاء بين القبائل في خصوماتها محل اهتمام شيوخ القبائل وأفرادها، فلقّب لهذا السبب بـ«مرعي»، لأن القبائل قديماً كانت تتبع المرعى لمواشيها، فكان لقب مرعي يشعر الجميع أنه محل للانتجاع سواء فيما يخصّ الرعي، أو الرأي والمشورة.

- ٣ -

بعد مرور شهرين على ولادة مرعي بدت ملامحه تتضح أكثر. برز أنفه بشكل جعله موضع النظر حين انتقل محور الأحاديث من فروة رأسه إلى أنفه المدبب.

هذه المرة صار الأنف هو البوصلة التي تشير إلى سلمى، فقد اتفق جميع نسوة القرية على أنه أخذ من أمه الأنف فقط. مزيونة هي الوحيدة التي خالفت النساء في هذا الشبه حين أشارت ممتعظة إلى أن أنف مرعي كأنف والده قبل أن يتجاوز الأربعين، وأنه لا يشبه بحال أمه سوى في صغر عظامه التي يبدو أنها تبشّر بولد قصير القامة.

يعرف الناس تلك الخصومات التي تحتدّ حينًا وتخفت حينًا آخر بين سلمى ومزيونة بسبب أو بدون سبب، والحق أن سببها كامن في أعماق مزيونة التي قالت لها سلمى ذات خصام:

«ما فيك من الزين إلا اسمك».

بقيت هذه العبارة عالقة في ذاكرة مزيونة كجمرة تلسع قلبها كلما حاولت أن تتسامح مع سلمى، أو حتى كلما نظرت إلى المرآة فأدركت

الفرق بينها وبين سلمى، إذ تدرك هي قبل غيرها أن سلمى أجمل منها بكثير، وأنها برغم ستة بطون عبرت جسدها إلا أنها لما تترهّل بعد، ولا تزال تحتفظ بقامة مديدة ووجه صقيل وعينين واسعتين وشعر أثيل، ينساب على متنيها بزهو كامل، وفوق ذلك جاذبية اجتماعية تجعل كل حدث يعبر بيتها كأنما يوقظ مجالس أهل القرية جميعها ليكون مادة للحكي.

كانت مزيونة تغتاظ أمام كل هذه المزايا التي تعلن انحيازها إلى سلمى، بيد أنها لا تعترف بهذا إلا في سرّها، في الوقت الذي تعلن تحفّظًا عند كل حديث يتعلّق بسلمى، ولهذا السبب لم تعترف حتى بعضو واحد من مرعي لمصلحتها، فقد بدا لها أن نسبة أنف مرعي المدبب إلى سلمى أو المقاربة بينه وبين أنفها هو نوع من الثناء المبطّن على جمالها.

وفي المقابل فهي تندب حظها حين تتذكّر الفرق الشاسع بين فهيد وزوجها عتيّق الشرقي، فقد كانت تقارن بينهما لا من خلال شركة المقاولات والحافلة البطيئة، وإنما أيضًا من خلال دورهما في المنزل واهتمامهما بالأسرة، وهذا ما جعلها دوماً تنشر أحاديث مكذوبة من أن حظها العاثر هو الذي رفض فهيد حين تقدّم لخطبتها من أبيها، ففهيد لم يكن في ذلك الزمن ملء السمع والبصر لا شكلاً ولا مضمونًا، وأنها حين فضّلت ابن خالتها الشرقي كانت تتوقّع لنفسها مستقبلاً

سعيدًا وخصوصًا أنه كان الرجل الوحيد في القرية الذي عاش فترة ليست بالقصيرة في نجد، وهو سبب تسميته بالشرقي، لكنها اكتشفت بعد زواجها به أن سكنه في الشرق لم يكن ليصبغه بهيبة من يسمّونهم بالشروق، سواء في لهجته التي احتفظ بها في ذاكرته قبل أن يغادر إلى الشرق، ثم أعادها على أطراف لسانه بعد أن استقر مرة أخرى في القرية، أو حتى فيما يتعلق بالشأن الاقتصادي إذ لم تعلق به فطنة أهل الشرق في التجوال بين أسواق المدينة، فخرج من كل هذه التجربة غير العميقة بحافلة تدبّ على طريق المدينة بما لا يزيد على عشرة ركاب يصطادهم على قارعة الطريق مبعثرين على امتداد المسافة إلى أن يبلغ مسجد التنعيم في طرف مكة الشمالي. على العكس من ذلك فتجارة فهيد تتسع باتساع الزمن، وهو مع ذلك لا يغيب عن سلمى، وقد ازداد اهتمامه بها أكثر بعد ولادة مرعي، بل إن سلمى فور خروجها من النفاس بدت كعروس في ليلة زفافها ما جعل أكثر نساء القرية يحتفين بها ويجعلنها مادة أحاديثهن في الضحى حين يمتد ظل سلسلة الجبال التي تقع حاجزًا بين القرية ومنطقة الرعي المفتوحة في الجهة الشمالية.

حين انتقل حديث الشبه إلى أنف مرعي، وبدا أن نساء القرية تركن فروة رأسه، قررت سلمى أن تحلق شعره وتتصدق بوزنه، وبرغم أن هذا الأمر حدث بقرار أسري خاص، إلا أن ذلك أعاد الفروة إلى واجهة الحديث مرة أخرى، فظلت النسوة يعاتبن سلمى على فعلها

حتى شعرت بالندم، وظلت تنتظر الأيام وهي تسير ببطء وملل كي تعود فروة مرعي كسابق عهدها وافرة الشعر، فتعيد النضارة إلى وجهه الذي بدت ملامحه تتشكّل متأرجحة بين أعمامه وأخواله.

ـ ٤ ـ

شعرت سلمى بالندم حين وضعت يدها على رأس مرعي فلمست فيه خشونة لم تكن في شعره الناعم الذي حصدته قبل أن يعلن عودته من جديد في فراء يبدو أنه نبت بطريقة شحيحة فصار يميل إلى الخشونة أكثر.

قالت في نفسها:

«كل الأشياء الجميلة تذبل بسرعة».

بيد أنها عزّت نفسها عن خيبة أملها بهذا الامتلاء الذي تراه في جسد طفلها البض. كانت تحتضنه وتقبّله بنهم، إلى درجة مزعجة في كثير من الأحيان تجعله يعلن تذمّره في بكاء متقطّع، لكنها ما تلبث أن تعود إليه كلما شعرت بفراغ عاطفي تجاهه.

كانت لا ترى فيه طفلها فحسب، بل ترى فيه زوجها الغائب، في ظل انشغاله بمقاولاته التي يبدو أنها اضطرّته إلى أن يسلّم كل ما يخص رعاية طفله الجديد لها ولأخواته الخمس، برغم أنه هو الآخر يكن له شفقة لا حدود لها، تظهر عند عودته إلى المنزل متأخرًا حين يوقظه بالقبلات المتتابعة، وهو الوقت الوحيد الذي يفرغ فيه، ولولا ثقته

بحسن تدبير سلمى، وحبها غير المحدود لمرعي، لترك أعماله وقام بدور الأم بدلاً عنها، لكن شعوره أن طفله يدرج في بيت عامر بالحب والشفقة والاحتفال بمقدمه جعله يطمئن إلى من أوكل أمره إليهم، وفوق ذلك فهو يشعر أن عمله الشاق كله من أجل مرعي وسلمى وأخواته الخمس اللائي ازداد لهن حبًا بعد قدوم مرعي، وكأنما شعر بأبوَّته تجاههن توًا.

لم يكن فهيد من ذلك النوع الذي يتذمّر من كثرة البنات في بيته، فهو على العكس من ذلك يرى أن رزقه واتساع رقعة شركة المقاولات التي تخصه إنما كان بسبب أنه يعول بناته الخمس، وذلك ما عرفه من قصص الوعاظ الذين يؤكدون أن مع كل فتاة يفتح بابٌ من أبواب السماء تنهمر معه الأرزاق بغير حساب، بيد أن سبب قلقه كان مرده حاجة البنات إلى عائل بديل يقوم مقامه فيما لو حدث ما لا يوده من صروف القدر، وذلك ما جعل غشاوة القلق تنقشع عن عينيه فيرى بناته في كمال حسنهن:

ريم السمراء ابنته البكر، تلك التي أوشكت أن تتجاوز الشريط الأحمر، وأختها التي تصغرها بسنتين، رملة ذات القرنين، والتوأم زندة وزبيدة، وخاتمة البنات سمر، شبيهة أمها، طفلته التي بدأت تشعر بفراغ اتسع عليها بعد الانصراف لمرعي، ضيفهم الجديد، وقد ظهر هذا في تصرفاتها وشقاوتها التي تحاول بها صرف الانتباه إليها، وكان فهيد يشعر بذلك فيزيدها دلالاً تعويضًا لها عمَّا فقدته بقدوم مرعي.

بدأ مرعي يدب حبوًا في أنحاء المنزل بين أخواته الخمس ورعاية أمه ورقابتها الصارمة، ومع أنه ملأ عليها المنزل بهجة إلا أنها في المقابل لا تخلو من حزن خفي يتسلل إلى قلبها في خضم هذه البهجة التي تملأ البيت بضجيج الطفولة.

في هذا الجو الأسري الحميم تشكّلت طفولة مرعي، وقد بدا في عيني أمه ينمو ببطء، بل إنها بدت تشك في نبوءة القابلة وأخذت تهجس في نفسها بسؤال تحاول أن تتجاهله بشفقة الأمومة، لكنه يلح عليها اضطرارًا كلما رأت مرعي يزداد بدانة، كيف سيقطع طفولته بسرعة البرق، كما تقول القابلة، وهو قد جاوز سن المشي ولمّا يزل يحبو؟ كانت تستغرب تلك المفارقة العجيبة، فهو، كقطرة صافية، انزلق من رحمها إلى يد القابلة؛ ما جعل القابلة تستشرف مستقبله بهذه الإشارة التي يبدو أنها لا علاقة لها بحياة مرعي ولا بطريقة حركته ونموّه في الحياة، بل على العكس، فقد صارت أحاديث القرية تغمزه بألقاب تعكس بدانته وبطأه في النمو، خصوصًا مزيونة التي كانت تدعوه بمداعبة خبيثة بـ«دبة سلمى»، وهي تقصد الإساءة إلى سلمى من خلال مرعي الذي تُمِرّ من طريقه مراشقاتها الكلامية في غير علن، فكان بعضها يصل إلى سلمى بطريقة أو بأخرى، فصارت بسببه كثيرة القلق ليس حيال مستقبل مرعي فقط، وإنما حيال مستقبل الأسرة كلها بعد أن جعلها مرعي بعد قدومه محل أحاديث الرجال والنساء معًا.

كانت سلمى تعي أن عليها في مثل هذه الظروف أن تكون رابطة

الجأش وألا تلتفت إلى مثل هذه المناوشات، ولا إلى هذه الألقاب المؤذية التي تتربص بطفلها في أنحاء القرية. عليها فقط أن تحوطه بالذكر صباح مساء، وبالرعاية والاهتمام حتى ينشأ ملء عين أبيه، وكما يريد له: أن يعيد حياة جده الأبعد في فروسيته وخصاله الحميدة وتحديدًا شخصيته المتميزة بين أقرانه.

-٥-

يقع بيت فهيد على ربوة مرتفعة قليلاً، بحيث يشرف على بيوت القرية فتبدو تحته متناثرة في بقعة واسعة، تتخللها أزقة ضيقة من جانب، وساحات فسيحة من الجانب الآخر بالقرب من سلسلة الجبال الشمالية. يبدو بيت فهيد أحدثها بناء، مكوناً من أربع غرف وصالة فسيحة تفضي إلى فناءين واسعين من طرفيه، يستعمل الفناء الغربي للضيوف وإقامة الاحتفالات الاجتماعية، في حين يقتصر الفناء الشرقي على الأسرة وما يتعلق بها. في هذا الفناء تحديدًا تبرز شجرة عملاقة نبتت منذ القدم، تركها فهيد ولم يقتلعها حين بنى داره للاستفادة من ظلها الممتد أيام الصيف، حولها مشتل زراعي صغير للبقول والخضر سريعة الحصاد وحظيرة صغيرة للدواجن.

بدا المساء مفتوح الأفق في قريةٍ ما إن تطفئ مصابيحها حتى تبدأ مصابيح السماء برسم خطوط من ضياء تنشط له ذاكرة الحكايات القديمة.

تشعر سلمى بامتنان وغبطة لهذه اللحظات التي جمعتها بفهيد وابنهما الذي طالما كان فارس حكايات أبيه في صورة جده، في ليالي

العرس الأولى، يوم كان يفرغ في أذنيها بطولات جده الأكبر الذي عاش ظروفًا عصيبة وتجاوزها بفروسية وحنكة.

كان فهيد يسرد مثل هذه القصص والأشعار التي تدور حول جده كلما شعر بصفاء مزاجهما معًا، لإيمانه أن الحكايات جزء مما ينبغي فعله كل ليلة تتيح هذه الفرصة في الطريق إلى إنجاب مرعي، وكانت سلمى تنصت باعتبار هذه الحكايات وصفة علاجية لتحديد نوع المولود وصفاته، في إيمان منها أيضًا بأسطورة **مرعي الأول** الذي ولد من رحم حكاية رواها أبوه لأمه ودسّها في مسامعها، كما ذكر لها فهيد ذلك، وأكّد أن تجربة الأجداد السابقين تفيد أن ذاكرة المرأة هي رحمها الحقيقية التي يتشكّل فيها الولد، وهو الأمر الذي تؤكده سلمى أيضًا من خلال تجربة الوحم، فكانت هي الأخرى تذكّر فهيد بضرورة إبعاد كل ما يؤثّر في ذاكرتها أثناء الحمل.

من ذلك تكرار قلقها من رؤية عامله المنغولي الذي استقدمه لحفر آبار القرية، إذ كانت تشير إلى أن رؤيته لا تفارق مخيلتها ليلة بكاملها، وقد نفّذ فهيد وصيتها أثناء شهور الحمل رغبة في تنقية مرعي من أية شوائب منغولية، ومع ذلك فقد كانت سلمى لفرط حساسيتها وحبها لمرعي تفحص جسده وتقوم بتفكيكه وتركيبه في مخيلتها عضوًا عضوًا لتطمئن أنه لا يحمل عضوًا واحدًا من هذا النوع المخيف، ودائمًا ما تشعر في نفسها بقلق كلما لاحت لها إصبع مرعي المعقوفة في طرف قدمه اليمنى لأنها رأت، أو تخيّلت، أن إحدى أصابع عامل

فهيد معقوفة في طرف إحدى قدميه، وقد ذكرت ذلك لفهيد فطمأنها أن هذه طبيعة خلقية تكثر في أصابع الرجال، بل زاد على ذلك بتذكيرها أن إصبعه هو معقوفة وإن كانت في القدم اليسرى.

كانت هذه الليلة مختلفة عن الليالي التي سبقت، من حيث أن ما دار فيها بين الزوجين كان اجترارًا لما سبق من تجاذب أحاديث كلها تدور حول مرعي الغائب، مرعي الجد الذي غيّبه الزمن، ومرعي الابن الذي ينتظران حضوره.

ينظر فهيد إلى مرعي وهو يداعبه، ويقول متّجهاً بحديثه وابتسامته إلى سلمى:

«كل حكايات الجد لم تفلح في استخراج هذا الدب من أعماقك سوى حكاية المطر».

ضحكت سلمى، وقد علقت على ما قال بذكاء امرأة بدوية: «وهل تحتاج البئر إلى شيء غير المطر؟».

كان فهيد، في إحدى ليالي الصيف المعتدلة، قد ذكر لسلمى أن جده مرعي كاد يهلك حين سقط في بئر مهجورة ومكث ثلاثة أيام جريحًا، بلا ماء ولا طعام، ولولا سحابة عبرت البئر فسقتها حتى امتلأت وفاضت لما خرج جده من البئر، وهكذا خرج فوجدته قافلة عابرة نفضت جوعه وأعادته إلى الحياة، ولولا لطف الله به لانتهت حكايته، وحكاية الأسرة كلها في بئر مهجورة.

حينئذ ذكّرته سلمى بأن كل شيء يحدث بقدرة الله، ومن له عمر

سيعيشه. في هذه الأثناء نظرت إلى مرعي النائم بينهما نظرة ملأى بالحنان والشفقة، وفي ذهنها أن أهل القرية لا حديث لهم سوى مرعي الدب، الذي جاء أخيرًا بعد خمس بطون، أو بتعبير فهيد، بعد حكايات متتابعة من الليالي التي طال فيها انتظاره، ولولا إيمانهما معًا بأن الله يقسّم للعباد المال والبنين ويعطي ويمنع من يشاء؛ لظنا أن مرعي لا يأتي في هذا الوقت الذي تحاصرهم فيه عيون القرية وأحاديثها المستمرة، بيد أنهما لا يلتفتان إلى ما يعشش في رؤوس أهل القرية من أوهام السحر والعين والحسد، برغم ما يقومان به من التدابير اللازمة من الأذكار التي تحوط مرعي بما يظنان أنه الحصن المعتدل غير المبالغ فيه للحماية من العين.

- ٦ -

في الجهة الشمالية تقع سلسلة جبال تمتد طولاً بمحاذاة القرية، تتكون من الحجارة البركانية السوداء التي تأخذ طابع تضاريس الحرات في طريق المدينة، وبين القرية والسلسلة الجبلية تمتد مساحة من الأرض الفضاء ذات الطابع الصحراوي، تتخللها بعض النتوءات من الحجارة البركانية.

في هذه المساحة تنبت بعض الشجيرات من السرح، وثمة مكان ترابي يتسع لإنشاء ملعب لصبية القرية، وهو ما حدث بالفعل، حين أشار مرعي إلى رفاقه الصغار بضرورة إنشاء ملعب رياضي يكون في طرف القرية بعيدًا عن البيوت كي لا يؤدي اللعب إلى إزعاج الأهالي خصوصًا كبار السن الذين يبدو أنهم شنوا حملة شعواء على أطفال القرية بسبب ضجيجهم المتواصل وما تحدثه مبارياتهم الحماسية من تخريب وتكسير لمصابيح البيوت ونوافذها الموشكة على السقوط من فرط التآكل.

استجابة لهذا الاحتجاج جمع مرعي رفاقه خارج القرية وبدأوا بتنفيذ مشروع الملعب الترابي، بعد أن جمعوا مبلغًا لا بأس به، لمثل سنهم، وقاموا بإصلاح بابين من الخشب مع شراء شبكتين وكرتين من الجلد، تحسبًا لما يحدث لإحداهن بسبب الشوك المنتشر في أماكن شتى حول الملعب، وبكثافة حول سرحة القرية العجوز التي لا تبعد كثيرًا عن الملعب.

استطاع مرعي أن يقنع خاله **صليّح** بجلب ما يحتاجون إليه من أدوات الرياضة وما يخص الملعب من أخشاب ومسامير وبودرة أرضية.

كان صليح مطواعًا لابن أخته تقديرًا لسلمى التي تجود عليه كل سنة من زكاة فهيد، وفوق ذلك ما تهب له مقابل أخوّته المتفانية والوقوف معها كلما احتاجت إليه في غياب فهيد. وكان صليّح، بالإضافة إلى ذلك، يحب مرعي منذ أن بدأ يحبو إلى أن استوى طفلاً وتزعّم الأطفال في القرية، وبرغم أن مرعي فقد بدانة الطفولة بعد أن تحوّل الحليب الذي كان يملأ أطرافه إلى أطعمة مختلطة من البيت والمطعم والبقالة، إلا أنه ظل يحمل لقب مرعي الدبّ بين رفاقه، ولم يكن ذلك يزعجه، لأنه لم يعد علامة على جسده كما كان في أيام طفولته الأولى.

كان جميع الأطفال يستجيبون لمرعي الدب، وربما استغل هو

دور خاله في جلب ما يحتاجون إليه للعب، حين يتبرّع بشراء الكرة بنفسه لتبقى سلطته سارية المفعول على أطفال القرية.

لم تكن سلمى تمانع أن يذهب مرعي إلى ملعب القرية، لكنها قبل خروجه تلحّ عليه كثيرًا في الابتعاد عن البئر المفتوحة التي تقع في تلك المنطقة، ليس خوفًا عليه من السقوط، أو من عبث رفاقه وتربصاتهم البريئة فقط، وإنما أيضًا خوفًا من ثعابين البئر التي تتلمظ من الجوع في تلك الفتحات والثقوب المبثوثة في جدار البئر الجانبي.

تذكر سلمى تلك الحادثة القديمة لأحد الصيادين، في غلس الفجر، حين هشّ الحمام بعد أن نصب شبكته على فوهة البئر، فكان أن عثرت قدمه فسقط داخلها، وكان سبب ذلك أنه رأى ثعبانًا مصادفة، فسقط من هول المفاجأة، وهي حكاية ترددها على مسامع مرعي كلما أراد الذهاب إلى الملعب.

ظلت هذه الحكاية سياجًا بين مرعي والذهاب إلى تلك الجهة المحفوفة بالخطر، حتى إنه لم يكن يذهب لإحضار الكرة حين تقفز بعيدًا في تلك الجهة استجابة لوصية أمه، وكان يحتال على رفاقه بأي عذر حتى لا يضطروه إلى إحضارها مثلما يفعلون.

ظل مرعي على هذه الحالة لا يقترب من البئر حتى جاوز المرحلة الدراسية الأولى، وكان شديد البر وشديد الخوف من أمّه، فلا يعصي لها أمرًا بسبب حرصها عليه ودلالها له من جانب آخر إذ توفّر له كل ما

يريد، وقد استمرت في رعايته حتى بعد أن تخرّج في المرحلة الثانوية، في حين كان أبوه منصرفًا إلى أعماله وإن كان لا يبخل عليه ولا على أمه وأخواته بشيء ثقة منه بزوجته التي يثق بحسن رعايتها.

الفصل الثاني

زمن التكوين

-١-

تبدو قرية عين شمس ذات نزعة ريفية برغم ما حدث من تطورات في بنيتها الاجتماعية في الفترة الأخيرة، حيث بقيت تحتفظ بمزارعها وشوارعها الترابية وبيوتها الشعبية التي تمتد أفقيًا في مساحات واسعة من الأرض المفتوحة في كل الاتجاهات عدا سلسلة الجبال التي تغلق القرية من جهتها الشمالية.

ثمة عدد من الآبار القديمة المهجورة في أطراف القرية، وهي التي قرر فهيد إعادة إنشائها وتدشينها من جديد بغية توفير المياه المحلاة والاستفادة منها ببيعها للأهالي في منطقة الجموم.

من بين هذه الآبار تبرز عين قديمة،هي ما تعرف بين الأهالي بعين شمس، نسبة إلى امرأة تسمى «شمس» كانت تسكن القرية وحدها في عريش،بحسب ما هو متداول في ذاكرة رجال القرية، فقد كان هذا العمل هو البذرة الأولى التي دست في رحم الأرض فأنتجت هذه القرية لاحقًا، بكل ما فيها من مزارع وأرض خصبة وينابيع تتطلّع أن تكون آبارًا في يوم من الأيام.

كانت شمس امرأة كبيرة السن قدمت في إحدى القوافل إلى

مكة، وقد راقها أن تسكن في الطرف الشمالي في طريق القوافل العابرة للحج، بيد أن أهل القرية يختلفون في نسبها، هل هي من بقايا الأسر العثمانية العريقة؟ أم هي، كما يزعم بعض كبار السن، زوجة جدهم الأكبر التي لم تنجب منه سوى هذه العين الشحيحة بالماء؟.

مرعي بعد أن جاوز طفولته وبلغ مبلغ الشبّان تفتقت في ذهنه هواية جديدة جعلته أكثر نضجًا، كما جعلت والدته سلمى أكثر زهوًا به حين لاحظت شغفه بالقراءة، وقد عزت ذلك إلى المرحلة الدراسية الناضجة في الجامعة، بعد أن تجاوز مراحل التعليم العام في القرية.

صار متخصصًا في قسم التاريخ والحضارة، وقد انعكست قراءاته على سلوكه في القرية واهتمامه بها، فقرر أن يقف على تسمية القرية بعين شمس، وهل يتوافق ذلك مع الرأي السائد؟ كما قرر أن يبحث في شجرة النسب، هل جده الأكبر، كما يقول أبوه وبعض أعمامه، تزوج بشمس دون أن ينجب منها؟ وما علاقة القرية بهذه المرأة؟ وهل هي فعلاً امرأة تركية من بيوت الخلافة في العهد العثماني؟.

في المقابل، كان رفاقه قد تفرقت بهم سبل العيش والدراسة. هليّل التحق بمعهد الإدارة للحصول على وظيفة مبكرة، فيما سلك ربيع طريقه إلى الجامعة، أما جاسر فاشترى له والده «وايت» لنقل الماء من قرية عين شمس إلى مكة والقرى المجاورة، في حين اتجه بقية رفاقهم إلى العسكرية.

- ٢ -

استطاع مرعي أن يلفت صديقه ربيع إلى تاريخ القرية بعد مسامرات عديدة بينهما، فقد كانا، بحكم أنهما الوحيدان اللذان التحقا بالجامعة، يستذكران دروسهما معًا، وبرغم أن تخصص ربيع مختلف عن تخصص مرعي إلا أنهما معًا يتركان المذاكرة وتجذبهما رغبة ملحّة في الهامش حيث الحديث الذي يتخلل فترات الاستذكار وكتابة البحوث المنزلية التي يكلفهم إياها أساتذتهم في الجامعة.

ربيع، رغم قرويته، بدأت ملامح طالب الطب تزحف ببطء نحو وجهه، فالنظارة السميكة التي يعلقها على أرنبة أنفه، وأصابعه الدقيقة التي تتحرك بحرفة طبيب حاذق، ولباسه الجامعي الخاص الذي يرتديه في المعمل وفي بيتهم، وعند مرعي أثناء المذاكرة، يجعل أهالي القرية يلتقونه بالإجلال والتوقير، وهم يستعجلونه التخرج ليفتح مستوصفًا أو عيادة للقرية، أما فتيات القرية فكنّ يغازلنه في خلواتهن، دون أن تبدي إحداهن للأخرى رغبتها في أن يكون زوجها في المستقبل.

في تلك الأحاديث الهامشية لفت مرعي صديقه «ربيع» إلى مشروعه المتعلق بتاريخ القرية الجغرافي، وذكر له طرفًا من أخبار

القرية في العهد العثماني وكيف أنها كانت صومعة لعابدة صوفية اسمها «شمس»، كانت معجبة بزبيدة زوجة هارون الرشيد، وقد حذت حذوها في حفر بئر ماء عميقة، جعلتها سبيلاً للعابرين في قوافل الحج، وعلى هذا الأساس سمي المكان «عين شمس».

بيد أن مرعي في أثناء نقاشه مع ربيع بيّن أن هذا الخبر التاريخي ورد في إحدى الوثائق التاريخية التي تحتاج إلى ما يسندها علمياً من خلال المخطوطات الأخرى وكتب التاريخ الجغرافية، خصوصًا تلك التي تعرضت لأسماء الأماكن في طريق الهجرة، أو حتى لأسماء الأماكن في منطقة الحجاز، وقد اقتنى لهذا الغرض معجم البلدان لياقوت الحموي، ليقف بنفسه على سرّ القرية الكامن في عمق هذه العين المهجورة.

ربيع هو الآخر وجد ميلاً إلى اهتمامات مرعي، وشعر بمتعة ما يسمع من تحقيق وتحليل، ووجد في نفسه فرقًا بين معامل الطب ومعامل التاريخ والحضارة، وقد أدى ذلك إلى اعترافه لمرعي برغبته في الانتقال إلى قسم التاريخ والحضارة لولا أن مرعي أَصَرَّ عليه أن يبقى ليكون طبيب القرية القادم.

يشعر ربيع أحيانًا بسأم شديد تجاه ما يتلقاه من دروس في الكلية الطبية، كما أنه يبدي لمرعي سخطه على التقزز والشعور بالخوف داخل المختبر الطبي وداخل المعمل التحليلي، فيقولها في صراحة لمرعي:

«أحياناً أشعر أني عامل نظافة عند الطبيب الاستشاري، والأدهى من ذلك حين يتعلق الأمر بجمع عيّنات تحليل البول والبراز.. هل تصدق أننا نحن المتدربين من يقومون بكل هذا؟ في حين يكتفي الطبيب بقراءة النتيجة ورصد الحالة؟!».

غير أن مرعي يرد له بمنطق آخر، مبيناً أن الطبيب لا ينال احترام الناس وإجلالهم إلا لأنه يقطع هذه الطريق، التي وصفها بالمقززة، بنجاح، ثم يذكّره بعظم أجر الطبيب، وأهمية عمله الإنساني.

حول تخصصه يذكر مرعي لصديقه ربيع أشياء محبطة لولا أنه يتجاوزها إلى عمق المعرفة، فدراسة التاريخ والحضارة ليست ذات جدوى اجتماعية، وطريقها لا يؤدي إلا إلى مدرسة في قرية نائية، وغاية ما يصل إليه المؤرخ أو الجغرافي المتخصص أن يؤلّف كتاباً لا يقرؤه أحد ولا يعترف بقيمته أحد، لكن المعرفة ليست في حاجة إلى تقدير الناس، لأن سرها في منجزها الحقيقي، حين يكتشف الدارس عوالم غائبة في أعماق المكان، ويجلو السطور غير المرئية في الأماكن القديمة والأطلال البالية والأسماء الغائبة، ولولا لذة هذه المعرفة لزهد الناس في العلم.

أكثر أساتذة مرعي في قسم التاريخ يرونه طالبًا مختلفاً عن زملائه في مرحلة البكالوريوس، كما يتوقعون له مستقبلاً في الدراسات العليا، ويعزون ذلك إلى فطرة البدوي في القرية وذكائه الحاد، كما يعزونه إلى قراءاته المتواصلة في تخصصه وخارج التخصص، والأمر نفسه ينطبق

على ربيع في كلية الطب لولا أنه يشعر، هو الآخر، بغربة ابن القرية بين زملائه في كلية يغلب عليها أبناء الذوات والمجتمعات الراقية، كما يذكر ذلك لمرعي، وهو ما يجعل الفرق الحضاري بينهم شاسعًا، ولولا حاجتهم إليه في بعض ما يشكل عليهم من المعادلات والتجارب الطبية المعقدة لبقي منبوذًا في مجتمع يتحدث عن السفر والابتعاث والرفاهية أكثر مما يتحدث عن العلم والمعرفة الطبية.

- ٣ -

شاع في القرية أن مرعي وربيع حدثت بينهما قطيعة بسبب بعض الخلافات، وهي لم تكن بحجم ما شاع، وإن كان الخلاف حدث بالفعل دون أن يؤدي إلى قطيعة، فقد كان مرعي يلحّ في الجلسات أن جده مرعي الأول قد تزوّج شمس، كما أخبره أبوه الذي ورث هذا الخبر من أجداده بحسب وثيقة نكاح قديمة كانت قد فُقِدت منذ زمن، وقد اعترض ربيع على مرعي بأن مثل هذه الأخبار لا تثبت من طريق كبار السن الذين يضيفون إلى أخبارهم ويتزيّدون في رواياتهم الشفهية التي هي أقرب إلى الأساطير.

كان ربيع يتحدث مع مرعي من واقع قراءات خاصة في هذا الجانب ليست ذات علاقة بتخصصه، لكنه كان يميل إلى مشاركة مرعي في ما يخص هذا الفن الذي غلب على ميوله خارج الجامعة، في حين كان مرعي يؤكد لربيع أن عمله لايزال في بدايته، وأن وثيقة النكاح القديمة من ضمن الافتراضات والخيوط التي ستقوده إلى كشف أسرار كثيرة من تاريخ القرية ربما يذهب إلى أبعد من علاقة جده بالزواج بشمس، المرأة التركية المتصوّفة، بحسب ما استقر في ذهنه.

لم تحدث قطيعة بين مرعي وربيع، بيد أن نقاشهما هذه المرة ازدادت حدته قليلاً، فتخاصما كما يحدث لأي صديقين حين يحتد النقاش بينهما، وما لبث أن خمدت الإشاعة حين شوهد مرعي وربيع يخرجان معًا في الطريق إلى المسجد.

إمام مسجد القرية لم يفوّت هذه الفرصة حين أخذ يذكّر الناس بإثم التقاطع والتدابر، فبدا أن أي حدث مهما صغر يملأ فراغ القرية ويتحول إلى حديث جماعي، وقد أدرك مرعي وربيع أن عليهما أن يحتويا نقاشهما في المرات القادمة ويحيطاه بشيء من السرية حتى لا يؤثر في علاقتهما، وقبل ذلك علاقة أسرتيهما اللتين يبدو أن أواصرهما قد ازدادت ترابطًا بسبب علاقتهما الدراسية، فضلاً عن القرابة الشديدة بينهما، وهو الأمر الذي كان يحرص عليه ربيع بشكل أشدّ، خصوصًا بعد موقفه العابر الذي رأى فيه مصادفة سمر شقيقة مرعي، فوقعت في نفسه ونبتت لها في قلبه شتلة خضراء تزداد هزة كلما أقبل على بيت مرعي، حتى صار يطيل الجلوس أكثر من السابق بدعوى أنه لم يفرغ من مراجعة دروسه كلها.

كانت سمر آخر الفتيات قبل ولادة مرعي بسنة، وهي مماثلة لربيع في السن، بيد أنها تبدو في رشاقتها أصغر من ربيع ومرعي معًا، وبرغم أن ربيع أسنّ من مرعي إلا أن مرعي يرى أسنّ منه، بسبب ما توليه أمه من اهتمام، إضافة إلى استقلال شخصيته وحيداً بين أخواته، وهو ما لم يتحقق لربيع الذي لم يبدأ صقل نفسه في طريق العمر إلا بعد أن التحق بكلية الطبّ وارتدى بالطو الطبيب الأبيض أثناء فترة التدريب العملي.

كان مرعي، في الطرف المقابل، منهمكًا في همه التاريخي وتَقصِّي خطوات جده التي يرى أنها واجب علمي وأسري في الوقت نفسه، ولكم كان سعيدًا إلى درجة الهوس حين عثر، أثناء قراءته في كتاب تاريخي عن العهد العثماني، على نص جديد، علّمه بالقلم الأحمر:

[وكانت أسماء البدو، في تلك الفترة، التي تزامنت مع العهد العثماني، يغلب عليها الألقاب والفأل الحسن، ولهذا كثرت في زمن الجدب أسماء مثل: مطر، بشير، مرعي، كما كثرت في النساء أسماء مثل: مزنة، مطيرة، عين ونبعة].

بدا له هذا النص مهمًّا من حيث تصنيف الأسماء في الحقبة التاريخية التي عاش فيها جده، وهو يعتبر من الخيوط الأولى التي قد يسلّ منها حكاية جده كاملة، فيما لو عثر على نصوص لاحقة تكون مساندة له في مشروعه البحثي عن قرية عين شمس، وعن جده الأكبر خصوصًا، الذي كان الدافع الأول له في الالتفات إلى تاريخ هذه القرية.

حين عرض هذا النص على ربيع، قال له، كعادته، في نقاشه معه:

- وماذا يعني هذا؟
- يعني أن جدنا لم يكن «مرعي» اعتباطًا..
- حسنًا، ولنفترض ذلك، ألا يعني هذا وجود أكثر من مرعي غير جدنا؟
- لكن هذا لا يهم، فتحديد تاريخ الأسماء هو بداية الطريق إلى الحقيقة.. هذا ما ذكره لنا الدكتور جهاد الزاكي، أستاذ

التاريخ والمخطوطات، فالأسماء كما ذكر هي بداية كل شيء، ومن هنا يهتم كل باحث بأن تكون بدايته من الأسماء، سواء كانت أسماء أشخاص، أو أماكن، أو مصطلحات علمية.

- هذا صحيح، لكن ألا تعتقد أن شيوع اسم مرعي في تلك الحقبة يجعل فرصة أن يكون جدنا هو زوج شمس أقل احتمالاً، وليس العكس؟
- بلى، ومن هنا يبدأ البحث والفرز، فأن تجد خيطًا خير من أن لا تجد شيئًا تستمسك به.

كان مرعي، في كل مسألة يدور فيها النقاش، يحيل إلى الدكتور جهاد الزاكي، وهو كما سلف، أستاذ التاريخ والمخطوطات، وكانت له نظرية بحثية، من ضمنها أن أي بحث علمي سليم لا بد أن يبدأ بالعلامات اللغوية؛ فاللغة هي تاريخ الإنسان، وهي علامته الكبرى التي يضعها أثرًا بعده، ومنها هذه الأسماء التي لا تقتصر على التعارف، وإنما تتجاوز ذلك إلى ربط الإنسان بالعالم من حوله، وبالأرض التي يعيش فيها، فالاسم قبل أن يكون علامة على الشخص هو علامة على علاقة الشخص بالمكان والزمان والناس من حوله.. ولهذا دائماً ما يقف معهم متسائلاً:

«لماذا علّم الله آدم الأسماء كلها في أول مهمة له في الحياة؟ أليس ذلك دليلاً على أن آدم لن يستطيع أن يتقدم خطوة واحدة في اكتشاف الأشياء من حوله إلا بهذه الأدوات المعرفية؟».

أدرك مرعي من خلال ما تلقّاه عن أستاذه أنّ اللغة هي الكون الرحب لاكتشاف كلّ الأشياء الغامضة، وهي الطريق إلى حلّ الشفرات الموضوعية في الواقع، وإلى هذا الأساس استند في بحثه عن قصّة جدّه مرعي وعلاقتها بشمس، وأتبع ذلك بالإفادة من تلك الإشارات اللغوية التي تصادفه في طريق البحث للربط بالواقع المعيش آنذاك، ولكن بطريقة تحاول قراءة اللغة قراءة رمزية إيمائية ليس بالضرورة أن تكون ذات منطق واقعي، ومن هنا كان تركيزه على دلالات الأسماء المتعددة، سواء ما يتعلّق بأسماء الأشخاص، مرعي وشمس ومطيرة ومزنة، أو ما يتعلّق بالأماكن والآثار، كالآبار والجبال والأودية التي تحمل أسماء الأحداث التي وقعت فيها أو أسماء الرجال الذين صنعوا أحداثها ببطولات أو إنجازات فارقة عن بطولات وإنجازات الآخرين، وهذا، بالطبع، منطق البحث في تاريخ الإنسان كما تلقّاه عن أستاذه، الدكتور جهاد الزاكي، المشرف على بحثه في الجامعة.

ـ ٤ ـ

من المصادفات، التي كثيرًا ما يدور حولها تندُّر مرعي وربيع، ما يخص أستاذ التاريخ والمخطوطات الدكتور جهاد الزاكي، فسيرته العلمية تكشف عن دراسته في جامعة عين شمس، وهي جامعة مصرية عريقة، ولها شهرة ذائعة في العالم العربي، تمنح طلابها وخرّيجيها وأساتذتها مكانًا علميًّا مرموقًا، فكان مرعي يذكّر ربيع دائمًا بأنهما من خريجي عين شمس، وأن أستاذ التاريخ لا يزيد عنهما بشيء، فيداعبه ربيع بأن جاسر أيضًا خرّيج عين شمس، ولا يزيدان عنه بشيء.

حينئذ يأخذ الحديث مسارًا جادًّا، حين يؤكد مرعي أن جاسر رجل يكدح في طلب الرزق وهذا لا يعيبه إطلاقًا. صحيح أن طفولته كانت مشاغبة، وأنه لايزال إلى هذه اللحظة يعقد على شاربه آمالاً كبيرة، لكنه يبقى في عمله محترمًا يستحق التقدير، وهو خير بكثير من العاطلين الذين ليسوا في عمل ولا في دراسة، وعلى إثر ذلك يدور نقاش حول العلم والعمل، فيأخذ طابعًا حواريًّا، يلفت فيه مرعي صديقه ربيع إلى أن مهنة الطب ليست علمًا بقدر ما هي عمل إنساني ولذلك يحترم الناس الطبيب، لا لعلمه، وإنما لما يقوم به من عمل متقن، وهذا ما

يجعل الناس يحتقرون الطبيب الفاشل ويصفونه بما يصفون به المهني الفاشل، بيد أن ربيع يرد بما يفيد أن الطب ليس كما هو في السابق نتاج تجربة عملية خالصة، وإنما هو نتاج تجارب علمية، والتجارب معقدة وليست بسيطة كما في السابق:

«إن الطب سابقًا «يقول ربيع» مهنة كسائر المهن، وهو قائم على الملاحظة الشخصية، ولذلك لا فرق بين الطب الشعبي اليوم والطب بمفهومه القديم، أما الطب الحديث فطب علمي، تسبق فيه المعرفة العلمية التجربة الإنسانية»، وبعد أن يوافق مرعي على هذه الرؤية يضيف أن الطب فن، وإن كان مصطبغًا بالصبغة العلمية، فهو، في الأخير، نتاج الملاحظة الدقيقة، سواء كان ذلك في المختبر العلمي أو في الواقع العملي، والعبرة في الأخير باكتشاف الدواء المناسب للحالة المرضية:

«صحيح أن الأدوات العلمية «يقول مرعي» اختلفت عن السابق، واختلفت معها طريقة المعالجة بناء على تطور وسائل الطب، لكن يبقى الطب هو الطب، قديمًا وحديثًا، برغم تطور التقنيات والوسائل، لأن المستهدف، في الحالتين، هو الإنسان، وهذا مشابه تمامًا، لما يحدث في العلوم الإنسانية التي تطورت تقنياتها ووسائلها ومناهج بحثها، فما يسري على الطب عندكم يسري على التاريخ، وبقية العلوم والفنون».

لا يسلّم ربيع لمرعي كل ما يقوله وإن كان يصادق على بعضه، فالطب يبقى مختلفًا، في نظره، عن السابق، لأنه تحول من علم في

الكليات إلى علم في الجزئيات الدقيقة، ولم يعد مادة من مواد الفلسفة القديمة، بل استقلّ فصار علمًا قائمًا بذاته، إلى درجة عزلت عنه العلوم الطبية والمختبرات التي صارت على هامش الطب، وصارت تصنّف في التخصصات الفنية المهنية، وليست هي من الطب في شيء.

كان مرعي وهو يحاول رد علم الطب إلى أساسه المهني القديم لا يقصد من وراء ذلك سوى كسر غرور ربيع، خصوصًا بعد أن رآه يحتقر مهنة جاسر، فجاسر في مهنته كالطبيب في مهنته، كلاهما مطلوب منه النجاح في العمل، لكن ربيع، رغم إدراكه لمقصد مرعي، أراد أن يفهمه أن الطب علم وليس عملاً محضًا، وقد شعر في نفسه بتحفّظ مرعي على تعريضه بجاسر، فعقّب على رأيه، بأنه يحترم جاسر ومهنته الشريفة، ويراه مثالاً للإنسان المناضل في سبيل العيش، بيد أن حديثهما كان متعلقًا بالمقارنة بين قرية عين شمس وجامعة عين شمس، وهي مقارنة، من أساسها، ساخرة، فالأمكنة بما تنتج لا بأسمائها وشهرتها الإعلامية.

- ٥ -

لا أحد ينكر من أهل القرية فضل جاسر في جلب المياه من العيون القريبة أو البعيدة، وكانت حاجتهم تشتد إليه أكثر حين يحل الصيف وتستهلك الحرارة خزانات المياه، ولذلك كان اسمه يملأ ذاكرة القرية في هذا الموسم بالذات، غير أنه في السنوات الأخيرة لم يعد يتعامل مع أهل القرية بسبب تركه الوايت واختياره طوعًا العمل في نقل البضائع.

بعد أن تهيّأت له فرصة عمل في شركة مياه مكة، صار يتنقّل بين مدن المملكة، خصوصًا، مكة – جدة – الرياض – الدمام، وقد استلم من الشركة نفسها ناقلة بضائع، اضطره ذلك إلى إيقاف الوايت في معرض السيارات في انتظار زبون قادم.

التفت أهالي القرية إلى حاجتهم فشرعوا في تقديم عريضة للحكومة يطلبون فيها تأسيس شبكة مياه محلاة، فتم تنفيذ المشروع لاحقًا،من طريق شركة فهيد، بعد أن تمت تهيئة البنية التحتية للمشروع قبل قدوم الشركة،على إثر شكوى من الأهالي، غير أنه ظل، فيما بعد، ينتظر دفق الماء الذي تأخّر إلى أجل لايزال أهل القرية في يأس من تنفيذه، وقد ربط بعضهم بين إهمال المشروع واسم القرية في دعابة

ساخرة، حين أشار إلى أن قريتهم «عين شمس» وليست «عين ماء»، والشمس عدو الماء منذ آلاف السنين.

وجد جاسر نفسه في الطريق الممتدة التي يقف على ضفافها أحيانًا في خلوات الليل والبر، لا أنيس له سوى شعلة الدافور وصوته الذي يقشع صمت المكان، فيما يعد بعض ما يحتاج إليه من طعام وشاي يرتشفه في استراحة قصيرة قبل أن يشرع في مواصلة سيره الذي لا يتوقف.

لم يعد جاسر يزهو بشاربه الذي بدا أقل كثافة من قبل، ولم يكن من النوع الذي يستدعي الماضي من ذاكرة ملأى بأحداث القرية أيام طفولته ؛إذ يشعر من داخله بضرورة السير إلى الأمام. كل شيء يراه ماثلاً أمام عينيه على طرف غطاء السيارة، على رأس النعامة التي تطل خصلاتها من الصدام الأمامي؛ فسائقو الشاحنات لا يلتفتون إلى الوراء. حياتهم معلّقة أمامهم، هكذا يتصوّر الحياة، لهذا لم تكن بينه وبين الحنين أية علاقة، بل على العكس فهو حين يذكر مصادفة قرية عين شمس لسبب أو لآخر، يشعر بالامتعاض والسأم. حياته الحقيقية أن يكون كالسهم نافذًا إلى الأمام، لا يفكّر إطلاقًا في العودة إلى القوس التي نبلته خارجها.

في قرية عين شمس يحتفظ الأهالي لجاسر بذاكرة الماء، فهو، في نظرهم، نبع القرية الذي يفيض ماء في أيام الحر، وقد ازدادوا إليه شوقًا بعد فشل مشروع التحلية، ونضوب الآبار من حولهم، ولأنهم يعلمون بعمله الجديد المرتبط بشركة المياه؛ يئسوا من عودته إلى عمله القديم،

واستعاضوا عنه ببعض رفاقه الذين لا يشبهونه في التزامهم بالموعد ولا في الحذق والكياسة في التعامل مع مولد الماء وسرعة إفراغه من الصهريج إلى الخزان..

جاسر.. ابن القرية، وحافظ أسرار الماء، وهو لا يقل مكانة عن مرعي.. المؤرخ.. ولا ربيع الطبيب..

هذا ما كشفته حاجة القرية لأبنائها حين جفّت الآبار وشحّت عين شمس بمائها العميق..

وبرغم أنّ جاسر كان في طفولته كثير الشغب من بين أطفال القرية إلا أنّ أهالي القرية يستعينون به من تلك الفترة في جسّ آبار المياه، وكان منافسه الوحيد هليل الذي بدا أقلّ موهبة منه مع قيامه بمثل هذا العمل على أكمل وجه في غياب جاسر، وقد نشأت خصومات عديدة بينهما. كان مرعي، في كثير من الأحيان، أداة جاسر فيها باعتباره ابن خالته، حين يقحمه في خصومة مع هليل لتحريض أولاد القرية عليه ومحاولة إظهاره في صورة الولد المشاغب.

وعلى العكس مما يكرّسه جاسر كان أولاد القرية يعرفون بحكم صداقتهم أنّ جاسر لا ينازع في هذه الصفة التي أقصته أخيراً عن القرية، واضطرّته إلى صحبة والده، ثم الالتحاق، من بعد، بالعمل خارجها، في شاحنة عابرة للطرقات.. الأمر الذي مكّن هليل من السيطرة على آبار القرية والقيام بالمهمة وحده، فصار بعد هذا التمكين موضع نظر الأهالي في كلّ عمل يتعلّق بترميم بئر قديمة، أو التدلّي إلى أعماق بئر خاوية.

- ٦ -

أدرك مرعي أن الطريق إلى عين شمس شاق وطويل.

عين شمس هذه المرة تتستّر وتتمنّع داخل الكتب والمخطوطات، وقد فهم فور التحاقه ببرنامج الدراسات العليا وحصوله على وظيفة معيد في قسم التاريخ والحضارة، أن المسألة ليست مسألة بحثية يمكن إنجازها في فصل دراسي أو حتى سنة دراسية.

أدرك ذلك بعد احتكاكه أكثر بعالم المخطوطات والوثائق التاريخية، وكان يظن أن أستاذه جهاد الزاكي يبالغ في الأمر حين قال له:

«اجعل هذا البحث مشروع حياتك، فما أجمل أن يرتبط الباحث بمشروع طويل الأمد يتعلّق بمسقط رأسه!».

يذكر أيضًا أن د. جهاد الزاكي ذكر في معرض حديثه عن التاريخ والحضارة أنهما مرتبطان بالإنسان من جهتين: ماضيه ومستقبله، وأن مجرّد فكرة أن تبحث عن تاريخ الإنسان في مكان ما، يتعلّق بقرية أو مدينة تاريخية، فإن هذا يكلّف العمر كله، بل يذهب إلى أكثر من ذلك حيث يعتقد أن ما كُتِبَ في تاريخ الإنسان المكاني، ويقصد به الإنسان

المتعلّق بمكان ما، لا يعدو نقوشًا أثرية على سفح جبل، فيما تختفي حقائق التاريخ وراء كمٍّ هائل من النقوش التي لا تزال تحت أنقاض الحضارة الإنسانية.

لم يكن يتصوّر مرعي أن قريته المنزوية في أطراف مكة، ستكبر وتصير بهذا الحجم في ذاكرة التاريخ، وفي بطون الكتب، وأن القضية لا تتعلق بجدِّه أو بامرأة تركية اسمها شمس فحسب، بل هي تتجاوز هذا التصوّر إلى تاريخ إنساني واسع تتعاقبه الحقائق المطمورة كسلسلة الجبال المتلاحقة من أقصى الأرض إلى أقصاها.

شعر بنوع من الإحباط واليأس، وقال في نفسه تحت تأثير هذا الشعور:

«في النهاية ما الذي يمكن أن أخرج به؟ ليكن جدنا فعلاً تزوّج هذه المرأة التركية وأنجبا هذه القرية على هيئة بئر تضخ ماءً زُلالاً، في واد اشتهر بمياهه العذبة، ماذا يعني؟».

بدا هذا الهاجس يرتفع في أعماقه، وهو يقاومه بين حين وآخر، حتى التقى أستاذه جهاد الزاكي، وعرض عليه ما يشعر به مفصّلاً.

ابتسم الدكتور جهاد، وقال، بثقة العالم المجرّب:

«ليس الهدف من البحث العلمي كشف الحقيقة أو حتى إشاعتها بزهو كما يحدث مع كثير من الباحثين. الهدف الحقيقي هو أن يضع الباحث نفسه علامة في الطريق إلى الحقيقة..، أن يسلك اسمه في سلسلة النسب العلمي، فكما أن للإنسان نسبه، فللعلم نسبه؛ فليس

مطلوبًا منك أن تضع نصب عينيك إثبات أن قرية عين شمس ذات علاقة بجدك وزوجه، بل أن تكون أنت علامة تشير إلى عين شمس كلما ذُكر اسمك في صفحات التاريخ».

أعادت هذه الفلسفة إلى مرعي روح البحث، وحفّزته أكثر أن يقرأ عن قرية عين شمس، ليس لإثبات فرضيته المسبقة، وإنما للبحث عن هذه القرية المطمورة تحت ركام الوثائق والمخطوطات، ولتكن النتيجة ما يقود إليها البحث، فإن عثر على جده وزوجه بين السطور انتشلهما ووضعهما في المكان اللائق بهما في سياق بحثه الذي هو بصدده عن تاريخ القرية وعلاقتها بدلالة الاسم المعاصر..

شرع مرعي في البحث وفقًا لرؤيته الجديدة فانثالت عليه الأفكار وتجددت الرغبة في السير بعد أن توقّف برهة على ضفاف الطريق.

ربيع، رفيق دربه في الجامعة، أتيحت له بعثة خارجية لإكمال دراسة الطب، وقد لقي تشجيعًا من مرعي، بعد أن كاد يكتفي بالدراسة في الداخل والحصول على شهادة طبية تمكّنه من السيطرة على أمراض البدو، كما يقول، ومحاصرتها في القرية بوصفات وقائية وعلاجية، غير أن مرعي سخر من طموحه القصير الذي لا يتجاوز (الكحيكحان)، السعال الديكي بحسب ترجمته في الطب العالمي.

قال له:

«في هذه الحالة لست أكثر من طبيب بيطري نستطيع تأمينه بجمع

بعض الخبرات من عجائز القرية ورعاة الأغنام والإبل في أطراف عين شمس».

بعد طَرَقات متواصلة من السخرية الموجعة قرر ربيع الابتعاث إلى كندا لإكمال دراسة الطب والعودة استشاريًّا في طب الأطفال، وهي أمنية أهله منذ أن قرر الدخول في كلية الطب لاعتقادهم أن أمراض الأطفال هي أوفر الأمراض وأكثرها انتشارًا، ليس على مستوى القرية فحسب، وإنما على مستوى المدينة أيضًا، ولا تزال ذاكرة القرية تحتفظ بالحدث الأهم حين دهم القرية مرض غريب ابتلع كثيرًا من الأطفال في سنة الجفاف، يوم كانت القرية خالية من جيل مرعي ورفاقه، وقبل أن يكتمل الجيل السابق الذي تناقص بسبب ذهاب كثير منهم ضحايا لهذا المرض الذي كان لا يمهل الطفل أكثر من ثلاثة أيام، حيث تبدأ أعراضه في اليوم الأول، ثم تشتدّ حمّاه في اليوم الثاني، في حين يعلن بلوغ الضحية نهايتها في اليوم الثالث حين يستحيل الطفل إلى ورقة صفراء خالية من الغذاء. بان، فيما بعد، أن المرض كان فيروسًا منتقلاً من دواجن القرية، وهو ما عرف لاحقًا بأنفلونزا الطيور.

ذكّر ربيع صديقه «مرعي» بذلك، وأعقب سخريته بالطب البيطري قائلاً:

«لا بد أن تعلم أن الطب البيطري ليس محتقرًا عندنا في الكلية كما يتصوّر الناس في الواقع، فالطب البيطري هو الطب البديل وهو الأساس الذي تتم من خلاله التجارب الطبية الحديثة».

غير أن مرعي بدا مصرًّا على سخريته، بقصد تحفيزه على الابتعاث، حين أعادها بعبارة أخرى:

«إذا بقيت على فلسفتك هذه فلن تغادر حظيرة أمك».

كانت سخرية مرعي، بالفعل، أشبه بإبرة الطبيب الماهر التي تؤلم ربيع لكن مصلها كان شديد التأثير، حيث كان مفعولها سببًا رئيسًا في جمع أمتعة ربيع ودحو حقائبه بكل ما يحتاج إليه في فترة ابتعاثه الطويلة في كندا.

- ٧ -

أخرجت قرية عين شمس أبناءها وقذفتهم في تنّور الحياة متفرقين، بين تاجر ودارس ومهني وعابر للطرقات، فيما انكفأت هي في جوار سلسلة الجبال تمضغ السأم في جلسات كبار السن، وضحويات النسوة اللائي يقضمن الحديث قضمًا حين يتعلق الأمر بزواج مؤجّل لخطبة ناجزة، أو ترقّب خطبة تلوح في الأفق، في حين اكتفى فتيات القرية بما جدّ من أمرهن بعد أن تهيّأن للانخراط في التعليم فيما يتعلّق بجيل الفتيات اللائي أدركن المدرسة عقب جيل اكتفين بتأثيث القرية من داخلها وترتيب الحظائر في أطرافها أو حتى تجاذب أطراف الأحاديث الشجية في خلوات المساء.

كانت سمر بنت فهيد من أول الفتيات اللائي تخرجن في الجامعة وتهيأن لمهنة التعليم، وقد شاع نبأ ترشيحها في المهد، على امتداد طريق المدينة في مسافة تقدر بـ ٣٠٠ كيلومتر عن القرية، وفور شيوع الخبر في قرية عين شمس بدأت الملفات الخضراء تجوب أطراف القرية استعدادًا للانخراط في طابور طويل من المعلمات اللائي ستخصص لهن حافلة صليح لتوزيعهن على المدارس في قرى متفرقة

على أطراف طريق المدينة وفي أعماق الأودية الممتدة في شكل مناطق وهجر تحتضن مدارس للبنات، وقد احتاج الأمر إلى هجرة بعض كبار السن مع معلمات اضطررن للإقامة في جوار تلك المدارس النائية.

استطاعت حافلة صليح أن تجمع عددًا من المعلمات، سواء من عين شمس أو الجموم أو حتى من غير المنطقة ممن التحقن بركب المعلمات من زميلاتهن في الدراسة، وبذلك ودّع صليّح زمن النقل العشوائي الذي يحاول اصطياد الركاب على قارعة الطريق أو عند المشاعر المكية في أوقات الزيارة، وصارت حافلته تذرع الطريق في عمل منظم أيام الدراسة، عدا أيام الصيف أو الحج حين تعود إلى سيرتها القديمة.

أدرك الجميع في قرية عين شمس أن مثل هذه الأرزاق ما كانت لتمطر سماء القرية لولا أن القرية فتحت أبوابها إلى الخارج ووضعت أقدام أبنائها بشجاعة في مواجهة الحياة والتوغّل أبعد من ذي قبل، ليس في سوق المدينة، وإنما في سوق الحياة بشكل عام، حيث ظهر أن القرية التي كانت تنطوي على ذاتها في خبرة رجال قليلين يمتلكون أكثر مما هو متوقّع من الطاقات والمواهب والاستعداد للبناء، وقد بدا للجميع أن مرعي هو المؤثّر الأول في القرية وعلى يديه بدأت تحوّلات القرية في تنوع مشاربها، بعد أن كان جميع أهل القرية يطمحون إلى أن يحذوا حذو أبيه فهيد، تاجر المقاولات، والجميع يذكر أن مرعي بعد

أن التحق بالجامعة عاد إليهم برؤى جديدة حين جمع كبار رجال القرية وشبابها وقال لهم في حديث كان نقطة التحوّل في تاريخ القرية:

«إذا كان كل رجال القرية وأبنائها يطمحون إلى عمل واحد فهذا يعني أن قرية عين شمس ستتحول إلى شركة معدات ثقيلة، ولن يفلح الجميع في أن يكونوا على مستوى واحد؛ فالأرزاق موزعة في أماكن شتى، ولا بد من مراعاة القدرات والطاقات. في القرية مواهب متنوعة وعقول مختلفة، سواء لدى الرجال أو النساء، فافتحوا الطريق للجميع، ولا تجتمعوا عند عين واحدة فيشحّ الماء، ففي الأرض ينابيع كثيرة ومشارب شتى».

كان حديث مرعي مع رجال القرية جديدًا، بدا للبعض فلسفة جامعية لا يعوّل عليها، في حين أدركه أفراد قليلون كانوا هم أصحاب البادرة الأولى في تفجير طاقات القرية بدلاً من الاقتصار على تفجير صخور آبار القرية الشحيحة بالماء، وكان من بين المؤمنين بما قاله مرعي والده فهيد الذي كان يشعر من داخله أن ابنه كان قدرًا جميلًا وجليلاً من أقدار قرية عين شمس، ويزداد شعوره فخرًا حين يتذكّر أنه جاء من العرق نفسه الذي يمتد بينه وبين جدّه، مرعي الأول.

يذكر فهيد بحفاوة بالغة ما تنبّأت به القابلة حين ذكرت أن لهذا الطفل شأنًا مخبوءًا في القدر، مستندة إلى سهولة ولادته، وقد أضاف إليه علامات أخرى أكثرها إلحاحًا عليه مجيئه بعد خمس إناث متتابعات؛ ففي ذاكرة القرية الشعبية ثمة أمثال يذهب أحدها إلى أن

الولد الذي يأتي متأخرًا يكون ذا قدرات خاصة، وفي بعض الحكايات الأسطورية تذكر قصة عمير الذي حمل اسم القبيلة وحماها وكان فردًا في أسرة تضج بذوات الحجال من النساء، وقد ولد متأخرًا بعد عدد وافر من الإناث، كما أن مرعي الجد الأول كان أيضًا ولدًا وحيدًا في أسرة تزداد فيها نسبة الإناث على الذكور وإن كان العدد ضئيلاً قياسًا بزمن مرعي الابن. يعزو كثيرون هذا التميز للولد الفرد بين عدد من النسوة إلى شعور ينشأ منذ نعومة الأظفار بضرورة التهيؤ للحماية والاستعداد لمواجهة الحياة بشعور رجل مبكّر.

على العكس من ذلك ما تطرحه رؤية علم النفس الحديث الذي يرى علماؤه الكبار أن تربية الولد في محضن نساء يؤثر في ذكورته ويجعل طباعه أقرب إلى طباع الأنثى، في حين أن ما حدث مع مرعي كان يعضد ما تقوله حكايات القرية وأساطيرها.

الفصل الثالث

زمن التركيب

-١-

عثر مرعي في الطريق إلى الجدّ الأول على مخطوط نفيس لم يكن في حسبانه، فقد صادف أن التقى، في الحج، وفدًا من حجاج تركيا، كان من بينهم أكاديمي في جامعة تركية، وبعد حديث طال حول تاريخ تركيا وامتدادها في التاريخ الحديث ظهر رأس خيط تشابك فيما بعد في نسيج من المصادفات التي قادت إلى أحداث في ذاكرة الأستاذ التركي عن علاقة كثير من الأثرياء في تركيا ببعض الأماكن في الحجاز، خصوصًا ما يتعلق بمكة وأطرافها من القرى.

ذكر مرعي لجليسه التركي أنه من قرية يتناقل أهلها أخبارًا عن امرأة تركية وفدت في قافلة للحج واستقرت في الطرف الشمالي من مكة، في قريتهم التي تحمل اسمها الآن، بسبب عين حفرتها لعابري السبيل.

عقّب جليسه على حديثه بما يؤكد احتمال حدوث مثل هذا الأمر، ففي الزمن العثماني لم تدع تركيا بقعة في الحجاز لم تسمها بوسمها، ليس لأنها صاحبة السيادة في ذلك الوقت فحسب، وإنما لاعتقاد

الشعب التركي أن الحجاز أرض مباركة وأن من يستطيع منهم نقش اسمه بين جبالها وشعابها فإنه كمن ينقش اسمه في الجنة.

لفت اسم عين شمس الأستاذ التركي ووصفه بالاسم البديع، المركّب من جزأين بينهما مفارقة دلالية، الماء والنار، البرد والحر، العين والشمس، ووصف هذه المفارقة بالظاهرة التي كانت شائعة في تلك الحقبة من الزمن، وهو ما سمي بعصر البديعيات، حيث تكثر المدائح النبوية في سلسلة قصائد تستند إلى الزخرف اللفظي، لكنه عقّب على هذا الاسم خصوصًا بالمصادفة التي لا تحدث إلا من طريق إلهام قدري يضع هذه القرية في مفترق طرق ذي شأن فيما يخص ذاكرتها التاريخية، وربما مستقبلها الحضاري القادم.

شعر مرعي بأهمية هذا الحديث الذي لا يصدر إلا عن مؤرخ بارع، له باع طويل في تاريخ البلدان، وذلك، بالفعل، ما ظهر، حين تتابع الحديث الذي قاد إلى مخطوطة عن تاريخ قرى الحجاز تقبع في مكتبة الأناضول بتركيا، قدّر مرعي، ومعه محدّثه التركي، أن تحوي شيئًا من تاريخ القرية، أو حتى تدل على بعض الأحداث المتعلقة بها، أو بشمس، تلك المرأة التي عبرت القرية ولم تترك خلفها سوى عين نضبت ماؤها منذ زمن، فبقيت أثرًا ماحلاً يشير إلى قافلة عابرة وأحداث غائبة في تلافيف الشعاب ومنعرجات الجبال والحرات الصامتة في أطراف القرية.

فور انقلاب مرعي إلى مكتبته الخاصة بدت له ملامح ربيع تملأ الكرسي المقابل، فعادت به الذكرى إلى نقاشاتهم السابقة.

«اشتقت إليك يا ربيع».

قالها وهو منهمك في فتح جهاز الحاسوب، وأردف:

«لا أدري ما تفعل الآن في كندا؟ هل كانت أقدارك كأقداري؟ أم أنك لاتزال تشعر بالغربة التي تحيط بك من كل جانب؟».

كانت أول رسالة تلقاها مرعي من ربيع، بعد شهر من مغادرته، طمأنه فيها على أحوال السكن والجامعة وبعض الزملاء الذين عثر عليهم من بلدان متفرّقة، لكن جل الرسالة بعد ذلك كان متعلقاً بالحياة الجديدة وبطء عقارب الساعة وتلك الكآبة الليلية التي تبتلع المكان، واللون الأخضر الذي يستحيل إلى سواد في عمق الليل، وتلك الوجوه العابرة التي تتلاشى سريعًا في ومضة حلم مزعج، والقرية الأسطورية المعلقة في سقف الجبل القريب من السكن الجامعي.

علم مرعي أيضًا أن ربيع اكتشف الأديب النائم في أعماقه، حين استيقظت صور قرية عين شمس في غربة الدراسة.

لم يستغرب مرعي ذلك، فهو يعلم أن جل الأطباء أدباء، وهي المفارقة العجيبة التي كان يطرحها كثيرًا في جلساته مع أصدقائه وزملائه، ومن بينهم ربيع نفسه، حين أكّد له أن حدثًا ما سيكشف الأديب المخبوء تحت بالطو الطبيب.

كان يشعر بذلك في ميل ربيع إلى العلوم الإنسانية وانحيازه إلى تاريخ الإنسان وإلى الأحاديث المتوالية عن الأمكنة، وقد قرأ، بحكم

تخصصه، عن تلك الرابطة بين التاريخ والشعر خصوصًا، في ضمير الإنسان المسكون بتفاصيل الماضي الشاعرة.

ليس هذا وحده ما دعاه إلى نبوءته فيما يخص ربيع، بل أيضًا ما يتعلق بمهنة الطب التي حين توغل في تفاصيل علم البيولوجيا ترتدّ فجأة إلى شعور عميق يتحوّل إلى علاقة إنسانية تفجّر طاقات الطبيب الشاعرة، وهذا ما حدث مع ربيع، الذي يبدو أن ظروف الغربة لم تكن سوى المولّد الظاهر لما يخفيه عالمه الباطن منذ أن فكّر في الالتحاق بكلية الطب. يؤمن مرعي إيمانًا جازمًا أن أنجح الأطباء هم أولئك الذين تكتشف فيهم مهنة الطب أدباء خلف ملابسهم الطبية.

بعد أن أضاءت شاشة الحاسوب دلف إلى عوالم النت من خلال معبر غوغل. جال في عالم المخطوطات وبعد أن سجّل رقم المخطوطة في مكتبة الأناضول أغلق الجهاز، تخيّل نفسه في اسطنبول، داخل مكتبة الأناضول يفحص مخطوطة من الجلد بعدسة يرى بها الخط السميك أشبه بنهر جار يقطع صحراء الجزيرة عابرًا المسافات بين تركيا والحجاز، فيما تظهر عين شمس أشبه بنقطة حبرٍ صغيرة، تكبر حين يضعها تحت عدسته حتى تظهر سلسلة جبالها السوداء جلية في شكل تضاريس متموّجة، في حين تبدو ملامح قريته كشامة في تلك المخطوطة التي لم تكن سوى حلم يقظة تشكّل في مخيلته فور أن فرغ من حديثه مع الأستاذ التركي الذي دلّه على المخطوط تحت عنوان:

«**قرى الحجاز في الدولة العثمانية، معالمها وأسماء رجالها**».

- ٢ -

شعر ربيع بكآبة الأمكنة من حوله توغل في أعماقه إلى درجة تجعله يقهقه بينه وبين نفسه حول المفارقة التي يصنعها المكان، حيث تبدو كل الأشياء، بما في ذلك اسمه، ذات حضور ربيعي من ظاهرها، في حين أنه على العكس من ذلك يرى هذه السهول الخضراء تمتد بتصحّر لا يدع في داخله مساحة لنبتة مورقة.

«لم أكن أتوقّع أن تبدو لي الرمال الصفراء أكثر جمالاً من هذه الحدائق التي تحيط بالسكن الجامعي».

ذلك ما أكّده في رسالته الثانية لمرعي، وهي الرسالة التي سماها **رسالة المفارقات.**

تبدو المنطقة السكنية هادئة ذات تلال خضراء وبحيرة واسعة تقع في المنطقة المقابلة للسكن الجامعي. قريبًا من السكن، بما لا يزيد على عشرين مترًا، يقع سوبر ماركت صغير، يدلف إليه المتبضعون فرادى، في فترات متقطعة، تبيع فيه آنسة شقراء، كان ربيع يحب دائمًا التحدث معها بالإنكليزية لزيادة حصيلته اللغوية المتعلقة بالخطاب اليومي، وقد نشأت بينهما صداقة لم تتجاوز الشعور بالإشفاق من ربيع الذي حاول

مرارًا أن ينقل لها صورًا ونماذج من التاريخ الإسلامي في عبارات قصيرة، مع معلومات تاريخية وجغرافية عن مكة، قبلة المسلمين.

عرف منها أنها فتاة لا تهتم إلا بشؤونها المعيشية وهي لا تنتمي إلى الدين المسيحي بشكل مباشر، بل هي لا تحضر صلوات الأحد، في الكنيسة، غير أن ربيع، بداعي الإشفاق على حالها، قدّر في نفسه أن تكون لعلاقات الود بينهما أثر في انتشالها من مجتمعها المادي، وقد بقي على هذا المستوى لم يتجاوزه إلى أبعد من ذلك، كأية علاقة عابرة تنبت حولها شجيرات لا تذهب بعيدًا في أعماق الأرض.

حين وصلت رسالة ربيع الثانية إلى مرعي كان هذا الأخير وقتئذ خارج البلاد في تركيا، فقد ذهب في رحلة علمية قصيرة إلى اسطنبول.

في المكتبة كان مرعي منهمكًا بين المخطوطات، وقد عثر أخيرًا على ما يريد. بخط لا يكاد يتضح قرأ عنوان المخطوط الذي بين يديه «قرى الحجاز في العهد العثماني» وثمة خط متقطع من أثر المحو، بدا له أنه تكملة العنوان. في اللوح الخامس عشر، السطر الثامن تحديدًا، قرأ هذه العبارة:

[وبالقرب من مكة حفرت السيدة شمس المغازي بئر ماء في طريق القوافل، تأسيًا بزبيدة].

فرح مرعي بهذا السطر التاريخي، وبعد أن وضعه في سياقه تبيّن له أن الخبر يخص إحدى الحرملك في فترة الولاة الذين يفدون إلى مكة فاستبعد أن تكون لها علاقة بجدِّه، ولكنه لم يستبعد أن تكون ذات

علاقة بالقرية، وفي هذه الحالة سيصل إلى نتيجة فحواها أن شمس التركية لم تتزوج جده، أقلّه فيما يخص المرأة التي حفرت عين القرية. نعم، قد يكون جده ارتبط بامرأة أخرى سميت على المرأة التي حفرت العين، وهذا محتمل، لكنه سيلغي كل حكايات أبيه المتعلقة بهذا الشأن، وقد يشكك في كل ما حكاه أبوه عن بطولات جده وعن حياته التي حاول أن يجعل من نفسه امتدادًا لها كما كان أبوه يحرص عليه.

في الواقع بدا أنه يسير علميًا باتجاه معاكس لمخيلة القرية وذاكرتها الشعبية، بل يسير، أيضًا، في اتجاه معاكس لتاريخه الشخصي المتمثّل في جده الأول.

«هل قدري أن أفقد كل ما يتعلق بي بسبب هذا البحث العلمي الذي كلما خطوت فيه خطوة إلى الأمام ابتعدت عن قريتي وعن نسبي وذاتي؟».

سؤال افتراضي وضعه مرعي على هامش إحدى القصاصات البحثية، وقبل أن يستريح في ليلته الفندقية الأخيرة، رأى أن يفتح رسالة ربيع ليطمئن إلى رفيق دربه وابن قريته في الطرف الغربي.

كانت المفاجأة الأخرى تنتظره بين تلك السطور المنطفئة التي فور اشتعالها قرأ من ضمنها ما يلي:

«... كانت فتاة دمشقية، متحجبة، وصلت إلى كندا لإكمال دراسة الطب. قسماتها وديعة ساحرة، هدوؤها في القاعة يزيدها جمالاً، وحديثها النافذ يلفت الأنظار إليها. محافظة إلى درجة أنها لا تتحدث

إلا في الشأن الطبي، وكثيرًا ما تبتعد عن تجمّعات الطلاب كي لا تتعرض للحرج..

لا أخفيك أنـي شعرت تجاهها بميل صرفني عن متابعة المحاضرات إلى متابعة مداخلاتها في النقاش مع الأساتذة، وقد لفتتني بذكائها وسرعة استيعابها، بيد أن المفاجأة التي أودّ أن أخبرك بها هي أن اسمها: شمس.

وقد سميتها من الآن شمس الدمشقية، وسأوافيك بأخبارها تباعًا، فقد تكون لها علاقة بقريتنا!».

كان هذا المقطع من ضمن **رسائل المفارقات** المتتابعة التي أرسلها ربيع، وقد حوت كثيرًا من المفارقات التي حرص أن ينقلها في نقاط مركزة، أبرزها ما يتعلق بشمس الدمشقية التي يبدو أنها نبتت في مخيلة مرعي بشكل مختلف جعله يوليها اهتمامًا أكثر من ربيع نفسه، فلم يعد يسأله عن أحواله فحسب، بل صار يسأله عن شمس وأحوالها في الجامعة وأسرتها المفقودة.

لم ينس مرعي في رسالته الأخيرة التي وجهها إلى ربيع أن يخبره بخيبة الأمل فيما يخص شمس التركية، حين ذكر له آخر ما توصّل إليه من حيث علاقتها بجده حيث بدا له أن العلاقة وهمية ولم يبق سوى خيط أمل ضئيل قد ينقطع في مستقبل الأيام، لكنه عقّب على ذلك بتجدد الأمل في الواقع الماثل من جهة شمس الدمشقية، مذيلاً ذلك

بأكثر من علامة تعجّب في إشارة إلى أن كلامه ربما كان على محمل الهزل.

في خلوات المساء الكئيبة كان ربيع يستحضر في ذهنه هذه المفارقة فيما يخص كل امرأة تدعى شمس، فشمس الصوفية الزاهدة، وشمس الدمشقية، الطبيبة المهاجرة، النازحة من وطن الزعتر، كما تسمّيه حين تتحدث عن سوريا الجريحة وثورتها الصابرة التي طال انتظار حصادها، بل التي حصدت أرواح آلاف من الشبان السوريين، من بينهم إخوتها وأبناء عمومتها وجيرانها.

فكّر ربيع في شمس الدمشقية التي كان حضورها في مقعد الدراسة حضورًا رمزيًا لقريته في طرف مكة الشمالي، فبدت له لغز حياة أكثر مما هي لغز بحث علمي، إذ إن المصادفة التي ساقتها إليه في هذا الظرف الدراسي جاءت متزامنة مع إلحاح مرعي في البحث عن صلة شمس بجده، وصلتهما معًا بالقرية وعينها التي نضب ماؤها.

تساءل ربيع إن كانت شمس الدمشقية هي الأخرى امتدادًا للقرية، أو لها علاقة من حيث أصول النسب بجد مطمور تحت ركام التاريخ قد يلتقي جدها في عين شمس، ثم بدا له هذا السؤال ساذجًا حين يربطه بالاسم الذي قد تشترك فيه عشرات، بل مئات وألوف الفتيات منذ بدء التاريخ الإنساني للأسماء، خصوصًا وأن هذا الاسم بالذات من أبرز معالم الكون، وحضوره في ذاكرة الإنسان ليس بتلك الصعوبة. الحقيقة هي أن ربيع لا يتأمل في الاسم بقدر ما يتأمل في المسمى، في

هذه الفتاة المشرقة داخل قاعة القلب، منذ أن بدا وجهها الملتف في حجابها الأزرق.

لأول مرة يرى الشمس تشرق بهذه الطريقة التي سكنت لها جوارحه واطمأن بها قلبه وزالت غربته، فصار كلما حنّ إلى القرية أنصت إلى صوتها وسرق على استحياء شيئًا من ملامحها الحزينة على وطن الزعتر فشعر بروائح أعشاب القرية تملأ القاعة الدراسية وتملأ جوانح القلب في آن واحد.

- ٣ -

في الكلية الطبية كان ربيع لا يعير الاجتماعات الجانبية اهتمامًا، إذ يقضي تلك المساحة الفارغة في المكتبة لاستثمار وقته في قراءة الكتب الطبية الصادرة حديثًا.

فوجىء، بينما هو منهمك في تقليب أحد الكتب الواردة حديثًا إلى مكتبة الكلية، بصوت يهمس، متسائلاً إن كان هذا الكتاب هو النسخة الوحيدة في المكتبة.

وقبل أن يلتفت خلفه ويجيب عن السؤال، كان قد أدرك أن الصوت قريبٌ من صوت شمس التي بدت تكبر في داخله على استحياء دون أن يتجرّأ يومًا فيحوّل هذا الشعور إلى علاقة عابرة ولو من باب العلم البعيد عن الشبهات العاطفية.

التفت إليها وبارتباك أجاب:

- وجدته في سلة العرض..

وأضاف:

- ربما كانت النسخ الأخرى في الداخل.

كان صوته خفيضًا يشي بشعوره الكامن تجاهها، وكأنما هذه

العبارة كانت حبل سيرك أراد أن يعبره بحذر شديد كي لا يتعثّر لسانه أو تفلت منه كلمة مخبوءة فتلقيه في هاوية سحيقة..

ردت عليه شمس:

- شكراً لك..

ثم أضافت:

- يبدو ذلك، آمل أن أجد منه نسخة..

وجدها ربيع فرصة بعد أن استجمع قواه في أن يعرض عليها نسخته إن تعذرت نسخة أخرى..

وبصوت أشجع من سابقه قال:

- يمكنك أخذ هذه النسخة إن كان الأمر مهمًا إلى هذه الدرجة..

حينئذ شكرته بامتنان وقد بدت ملامحها أكثر انبساطًا، ثم تركته ودلفت إلى الداخل بعد أن بادلته ابتسامة ظلت تكبر في ذاكرته منذ أول حديث خارج القاعة إلى أن تتابعت اللقاءات في أروقة المكتبة في نقاش حول كتاب طبي حديث، أو معادلة تحتاج رموزها إلى حل، أو حتى حديث عابر خارج السياق العلمي يتبادلان فيه الشوق إلى الوطن وراء الحدود.

ظل ربيع يجترّ تفاصيل اللقاء الأول رغم قصره فتنثال في ذاكرته لقاءات عديدة لما تحدث بعد، كأنما يرتّبها قبل أن تحدث، بل إنه أحيانًا يرسم موعدًا للقاء يقوم بالتخطيط له بمفرده مستعينًا بحدسه

الذي يستند إلى متابعة دقيقة ليوميات شمس منذ الصباح حتى يحين موعد الانصراف من الكلية. ليس هذا وحسب، بل يوغل أكثر حين يدير دفة الحديث بيده فيرغمها على أن تتحدث في شأن أسرتها ووطنها ثم ينتقل بها إلى حيث قريته ليحدثها عن شمس، المرأة التي فجّرت ينابيع الماء في قريته، فاستحقت بذلك أن تسم القرية بوسمها، كما يحدثها عن صديقه مرعي وسعيه الحثيث في البحث عن أسرار القرية وكنوزها المخبوءة في بطون الكتب الصفراء.

في المقابل كان مرعي لا يزال عالقًا في شرَك بحثه الذي ازداد تعقيدًا بعد عودته من تركيا، وقد هرع إلى أستاذه جهاد الزاكي فأوضح له أن البحث لم تبدأ متعته المعرفية سوى هذه الساعة، حيث تبدو الخيوط متباعدة والمسائل أشتاتًا.

أدرك مرعي أنه بإزاء رحلة علمية شاقة لا تتوقف على البحث العلمي فقط، كما أن عليه إن أراد الوصول إلى الحقيقة الغائبة في تاريخ القرية أن يفيد من كل ما يقع تحت يديه من الكتب، ومن الأحداث الماضية والحاضرة، إلى درجة أنه لم يهمل حتى تلك الصدف العابرة التي قد لا يلقي لها بالاً، فرسائل ربيع وعلاقته الجديدة بشمس الدمشقية قد تكون، رغم ما يظهر له من تباعد بينهما، معززة لما يبحث عنه فيما يخص علاقة جده بشمس، سواء كانت هي الأميرة التركية التي حفرت العين أو غيرها؛ فالمهم أن الأحداث الجديدة قد تكون ظلالاً للأحداث الغابرة، تلك التي طواها الزمن في ذاكرة التاريخ.

يذكر في هذا السياق أن الدكتور جهاد الزاكي أكّد مرارًا أن الأحداث التاريخية الصغيرة أشبه بأمواج البحر تتحرك بطريقة واحدة وإن كان الماء غير الماء، ولهذا كان يشبّه لهم حركة التاريخ بالمد والجزر، في حين أن الأحداث الكبرى هي التي تتغيّر فحسب، شأنها شأن العواصف التي تطرأ على البحر دون أن تكون قانونًا عامًّا في حركته، ولعله لهذا السبب كان يرى الجُزر التي تظهر على امتداد الماء للسفن البحرية أشبه بالحقب المزدهرة التي ينعم فيها الناس بالعيش الرغيد.

يذكر مرعي هذه المقاربة بوعي باحث يستثمر كل ما يقوله أستاذه فيما يعرض له من مسائل أو إشكالات سواء تتعلق ببحثه الجغرافي التاريخي أو حتى بأحداث الحياة التي تعبر أمام عينيه فيما هو يتأمل بفكر يقظ وذهن وقّاد ومخيلة خصبة تتسع لتشابك الأحداث وتلاقحها.

في رسالته الجديدة كان ربيع قد أخبر صديقه مرعي عن التطورات الجديدة في الكلية وساق له شيئًا مما دار بينه وبين شمس الدمشقية حيث جاء في آخر رسالته:

«لم أخبرك بصاحبة الشال الأزرق..؟

بالتأكيد.. تبدو متلهفًا لمعرفة أخبارها..

التقيتها في المكتبة الجامعية ثلاث مرات.. كانت المرة الثالثة حافلة بالمفاجآت، فقد عرفت منها أنها سورية من أصول تركية، وأنها برغم شعورها بفقد وطنها إلا أن عروقها البعيدة التي تتمثل في أجدادها

الأوائل تشعرها بالانتماء العميق إلى تركيا.. هنا وجدتها فرصة سانحة أن أدخلك بين سطور سيرتها حين ذكرت لها أنك تبحث عن جدتك الضائعة، فابتسمت، وطلبت مني أن أبلّغك السلام باعتبارك تلتقي معها في الجدات التركيات..

حدّثتها عنك كثيرًا ولم أشعر بالغيرة منك إطلاقًا لثقتي أن ملامحك الغائبة لن تستطيع لفت انتباه امرأة فضلاً عن أن تكون هذه المرأة بحجم شمس، إذ يبدو لي أن غيابك أقوى تأثيرًا من حضورك، وبرغم ذلك فتكفيك شمس جدك الغائبة..».

حين قرأ مرعي هذا المقطع من الرسالة شعر برغبة في أن يلتقي ربيع فيعيد إليه اللكمات التي تلقاها عن بعد ويريه أيهما أحق بشمس، سواء تلك التي غابت؟ أم هذه التي أشرقت في عالم ربيع وراء البحار؟.

ـ ٤ ـ

حين فكّر مرعي في استثمار كل ما حوله وتوظيفه في بحثه قرر العودة من حيث بدأ.

كانت القرية بطبيعة الحال هي نقطة البدء، لكنه حين عاد يتفقّد ملامح قريته بروح الباحث طرأت له فكرة أن يزور البئر المهجورة في طرف القرية، تلك التي كانت أمه قد حذّرته من الاقتراب منها أيام طفولته.

يعود إليها اليوم متسلحًا بالمعرفة ويجسّ خبرها بمبضع المؤرخ الجغرافي الذي يقرأ ملامح المكان لينفذ منها إلى عمق التاريخ.

كانت أمه قد ذكرت له قصة معضد الذي سقط في البئر فيما هو ينصب شركًا للحمام صبيحة يوم من أيام الصيف الحار.

تذكّر هذه الحكاية فقدّر أن البئر تنطوي على حكايات أبعد غورًا في الزمن؛ فبحسب ما يحفظ في ذاكرته عن الدكتور جهاد الزاكي أن الحكايات تفضي إلى حكايات والأحداث تنطوي على أحداث، وهكذا يمكن للباحث الجاد أن يستقي من الزمن حكاياته وأحداثه كما

يستقي الماء من البئر، فحين ينبع الماء من الصخر يبدأ وشلاً ثم يزداد شيئًا فشيئًا حتى تصبح البئر ملأى يفيض الماء من أطرافها.

كان الدكتور جهاد يربط ذلك كله بمفهوم الاستنباط العلمي وتلك الملكة التي حين تكتمل في الباحث يستطيع من خلالها إدراك أسرار المعرفة واستنباطها من أماكن شتى قد لا يجمعها رابط ظاهر، وكان من ضمن ما وضّحه لهم معنى كلمة استنباط في المعجم حيث تعود في أساس الوضع والاستعمال إلى استخراج الماء، ثم نقلت بعد ذلك إلى استخراج دقائق العلم والمعرفة.

في بئر القرية تختبئ قصة مرعي، الجد الأول، كاملة، ولعل في أعماقها وثائق مطوية قد دُسّت في أحد الشقوق التي في جدار البئر الداخلية؛ فقد ورد في إحدى المخطوطات التي كان قد مر بها في بحثه أن الآبار المهجورة قديمًا كانت محلاً آمنًا لأسرار القوافل العابرة، سواء ما يتعلق بقصص العشاق ورسائلهم أو ما يتعلق بالكتب النفيسة التي يخبئها أصحابها مضطرين حين يدهمهم عدو خارجي.

فكّر كثيرًا في سر وجود الثعابين في الآبار وربط ذلك بحكايات السندباد حين يظهر الثعبان حارسًا للكنز المطمور، كما هو موجود أيضًا في حكايات ألف ليلة وليلة، وقال في نفسه:

«لم يأت هذا الاعتقاد عبثًا، لا بد أنه نتاج ثقافة سائدة، الأمر الذي يجعل البئر موضع أسرار كثيرة لما يكشفها العلم بعد».

دعاه ذلك إلى تخصيص وقت لقراءة جادة عن البئر وما يتعلق بها من أحداث تاريخية مهمة.

بدأ أول ما بدأ بقصة موسى عليه السلام مع المرأتين اللتين تذودان حين سقى لهما ثم تولّى إلى الظل.

حين تأمّل هذه القصة النبوية الكريمة لاحظ أن السقاية تتعلق بامرأتين صارت إحداهما زوجة لموسى عليه السلام، فربط بين هذا الحدث وما سمعه من أبيه عن جدّه الذي كان شهمًا يبذل ما في وسعه للآخرين، كما بدا له أن البئر كما هي ذات علاقة بالعطاء والسخاء فهي ذات علاقة حميمة حين تكون طريقًا إلى ارتباط زوجين، وهنا يكون منطلق البحث متناغمًا مع العلاقة المفترضة بين جدّه وصاحبة البئر، أو كما هو متعارف عليه في القرية صاحبة العين التي ظلت زمنًا تسقي القرية وتردها القوافل في موسم الحج.

تذكّر أيضًا قصة يوسف عليه السلام في البئر وخروجه إلى مصر ومحنته مع امرأة العزيز ثم زواجه بها لاحقًا كما تذكر بعض أخبار التاريخ.

هكذا عَبَرَ التاريخ يتنقّل بين الآبار والعيون فسالت أوديته بوجوه الناس والأحداث والحكايات، إلى أن استقر في قريته على قُفِّ البئر المهجورة جالسًا يتأمّل ما الذي يمكن أن يستقيه من أخبار هذه البئر غير حكاية أمه الوحيدة التي كان يدرك أنها سيقت من أجل حمايته من خطر البئر أيام طفولته؟.

ها هو ذا يعود إليها بعد أن صار رجلاً ملء إهابه ولغاية علمية تتعلق بماضي القرية ومستقبله العلمي الذي اتخذه طريقًا في الجامعة رغبة في خدمة القرية من جهة وخدمة القبيلة من جهة ثانية، ومن أجل كتابة تاريخها وتثبيتها في ذاكرة الزمن بوثيقة شرف علمية.

ـ ٥ ـ

في مقهى صغير على أحد الأرصفة كان لقاء ربيع مع زميلته شمس الدمشقية قد تزامن بإرادتهما مع عطلة الأسبوع حيث اتفقا في الكلية أن يراجعا محاضرات الأسبوع المنصرم معًا، وكانت لقاءاتهما المتتابعة في المكتبة قد هيّأت لهذا اللقاء وجعلته طبيعيًا في سياق لقاءات متشابهة كلها تأخذ طابع اللقاءات العلمية.

بدأ ربيع الحديث بكلمات ساخرة توضّح انطباعاته عن زميلته حين لفتته في المحاضرات الأولى وهي تعلّق على ما يطرح في قاعة الدرس.

سألها إن كانت عزلتها عن المجموعة بسبب انطباعها عن الطلبة السعوديين الذين يتجاوزون حدود اللياقة الاجتماعية مع الفتيات في مثل هذه البلدان المنفتحة. أجابته، وقد بدت حريصة على إيصال صوتها بوضوح:

- لا، فأنا أحترم الطلبة السعوديين ولا أظن هذا الانطباع صحيحاً، فهم يتمتعون بأخلاق عالية في سلوكهم تجاه الآخرين..

وقبل أن يبدأ النقاش العلمي، أضافت:

- من المناسب أن أخبرك بقصة طريفة حدثت لي مع شاب سعودي هي ما جعلني أكوّن انطباعًا حسنًا عن هؤلاء الشباب الذين يفدون للدراسة، فقد صادفت مرة في أحد المطاعم مجموعة من الشباب السيّاح من الخليج وكانت ضحكاتهم تتعالى إلى درجة أنهم لفتوا جميع من في المطعم وأزعجوا الزبائن فحدثت بسبب ذلك مشادة مع النادل الذي اتصل بالبوليس، وعلى الفور خرج هؤلاء الشباب عدا هذا الشاب الذي يبدو أنه لا علاقة له بهم، وإنما قادته الصدفة أن يكون قريبًا منهم، فظن النادل أنه أحدهم، وحين جاء رجل الأمن، لم يبال به واستمر في تناول طعامه. أشار النادل إليه، فتوجه إليه رجل الأمن وطلب منه بياناته الشخصية، فاعتذر بأنه تركها في السكن، ثم أوضح أنه جاء هنا ليدرس فقط، وليست له علاقة بالسيّاح الذين يأتون بجلبتهم وضوضائهم. نظر إليَّ حينذاك وأشار لأكون شاهدة على ذلك. فوجئت بطلبه شهادتي، ومع ذلك لم أخذله حيث شهدت له وقمت بتزكيته وذكرت أنه زميلي في معهد اللغة.

بعد أن ذهب البوليس شكرني بامتنان، وقال لي:

- أعتذر إن كنت أحرجتك، فلم أجد طريقة غير هذه تنقذني من تصرفات الهمج الذين يأتون كل صيف من أجل إفساد علاقتنا بالآخرين.

عرفت بعد ذلك أنه طالب سعودي مبتعث، وكان قد ذكر لي أن الطلبة المبتعثين للدراسة يختلفون في ثقافة الانضباط واستيعاب البلد المضيف عن السيّاح الخليجيين الذي يعبرون المكان ويتركون خلفهم انطباعًا سيئًا نجني نحن عاقبته.

علّق ربيع على كلامها بأن ذلك طابع كل السيّاح عربًا كانوا أو غير عرب، لكن شمس بدت غير موافقة على هذا الرأي ووصفته بالتعميم الخاطئ، فهو لا يصدق على كل الشعوب التي تحتفظ بقدر كبير من احترام البلد المضيف، وعقبت بأن ذلك لا يعني أن كل العرب بهذه الطريقة، ثم استدركت:

- مع ذلك، فهذه طريقة عربية تخص الشباب الذين يبدو أن كبت الأنظمة قد جعل منهم عبثيين في البلدان الأخرى.

أثارت هذه الفكرة ربيع ليدير الحديث باتجاه بلدها،فسألها إن كانت ستعود إليه بعد أن يستقر وتعود أسباب الحياة.

نفثت زفرة حرّى، وقالت بحسرة وألم:

- ستكون عودة تحمل من الحزن بقدر ما تحمل من الفرح.. ليس سهلاً أن يعود الوطن مزدهرًا من جديد، فتلك فرحة لا يذوقها سوى من فقد وطنه فنبتت فيه الحياة كرة أخرى بعد أن صار مقابر جماعية، كما أن العودة ستحمل في معانيها كثيرًا من الفقد الموجع.. الأهل والأصحاب والجيران..

وبعد لحظة صمت حزينة التفتت إليه وقد حبست دمعة حائرة في محاجر عينيها الصافيتين، متسائلة:

- هل بوسعك أن تتخيّل قريتكم تموت ثم تحيا من جديد؟ وهل ستجدي حياتها ثانية وهي خالية الوفاض من كل الوجوه التي جعلت لها معنى حقيقيًا في ذاكرتك؟

ردّ ربيع معقّبًا:

- المهم أن تحيا، أن تعود لتزدهر ثانية وثالثة، فالوطن الحيّ في وسعه أن يعيد أبناءه ولو في الأجيال القادمة.

قالت، مستدركةً:

- ليس الوطن سوى مجموع الناس الذين عمروه بالأحداث، وليست الأرض سوى ساكنيها، وما سوى ذاك فتراب وحجر وتضاريس لا معنى لها بغير أهلها الذين ينفخون فيها روح الحياة، وهذا ما يبعث الأمل، أن يعود الذين ماتوا في ملامح وطموحات الأجيال الجديدة.

تذكّر ربيع قريته، فأطرق برأسه حزينًا، وطلب من شمس أن تبدأ النقاش العلمي، إذ يبدو أن أحاديث الغربة أطول بكثير من جلسة في مقهى على رصيف عابر..

نقش هذا المقهى في ذاكرة ربيع له اسمًا غير اسمه، فمنذ أول لقاء وهو يدعوه مقهى شمس..

لم يكن مقهى شعبيًا ولا على النمط العربي. كان مقهى صغيرًا يستحق أن يسمى كافيه، فهو لا يتجاوز زاوية في ركن مبنى قريب من الكلية، يديره عامل واحد فقط، يبدو أنه صار شاهدًا على هذه اللقاءات

المتتابعة التي لا تبعد في ظنه عن نقاش طالبَيْ طب يخلدان إلى الراحة لتناول القهوة التركية التي يعدها خصوصًا لهما، وقد ظن لأول وهلة أنهما من الطلبة الأتراك لولا أن ملامح ربيع بدت له ذات سحنة عربية لا تخفى، خلافًا لشمس التي كان من الممكن أن تتقمص الهوية التركية بيسر وسهولة دون أن يثير ذلك تساؤل أحد..

-٦-

بدا لمرعي أن تتبّع تضاريس القرية ورصد معالمها أجدى لبحثه من العكوف على المخطوطات التاريخيّة التي قرر أن تكون مرحلة ثانية في مشروعه البحثي، فاكتشاف القرية أولاً يساعد على فهم ما يكتب عنها، وهذا أيضًا ما باركه د.جهاد الزاكي حين قال لمرعي في نقاشهما الأخير:

«عودتك إلى القرية وإعادة النظر إليها بحسّ الباحث سيكشف لك أشياء كانت مخبوءة في زمن الطفولة، فمن الأفضل أن تعود إلى تلك المعالم القديمة وترصدها مستعينًا بذاكرتك».

كانت البئر هي منطلق مرعي، ويبدو أنه بذل جهداً لا بأس به في القراءة عن البئر في ذاكرة البدو، وقبل ذلك في تاريخ الثقافة العربية، فخرج بمعلومات مفيدة جعلته أكثر حرصًا على استجلاء ذلك عن قرب من خلال بئر القرية.

قرر أخيرًا أن ينزل إلى قاعها ولو كلّفه ذلك حياته، لكنه تذكّر وصية أمه، هل لا تزال الوصية سارية المفعول؟ أم أنها كانت تخصّ طفولته فحسب؟ لو أنه أبلغ أمه بنيّته لرفضت؛ فالابن لا يكبر في نظر

والديه مهما بلغ من السنّ، لكن عليه أن ينفّذ ما قرر دون أن يخبرها، متأولاً وصيتها بظروف سنّه في تلك الفترة وعبث الصبية الأشرار.

اليوم يعود مرعي إلى البئر أشبه بعالم جيولوجي وباحث آثار، وهذا يتطلّب فريق عمل يتم من خلاله تسجيل كل ما يواجهه من أحافير وفحص كل ما يجده من نقوش أو ورق مخبوء في شقوق البئر الجانبية.

يذكر، أيام طفولته حين كان عُمَّال أبيه يحفرون الآبار أو يعيدون ترميمها، أنّهم عثروا على كثير من الخردة والطلاسم المدفونة في قاع البئر، كما يذكر تلك المخطوطات النفيسة التي ذهبت سدى بعد أن تخلّص منها العُمَّال برميها في براميل النفايات أو دفنها مع أكوام القمامة في الوادي شمالي القرية. قال في نفسه:

«كثير من العلم ذهب سدى في زمن الجهل».

بيد أنه لم يعلن يأسه، فالبئر الوحيدة التي لم يصلها العُمَّال قادرة على تعويض ما درس، ولعل حادثة معضد كانت سببًا في حراستها من أن تنالها يد عابث، إذ لولا تلك الحادثة لم تتحوّل هذه البئر إلى أسطورة تلد الحكايات العجيبة، ولم يحرص أهالي القرية على تسقيفها وحمايتها من الناس والدواب. لعل قدر هذه البئر أن تحفّها العناية بسبب ما فيها من بركة العلم وما تحتوي عليه من نفائس التاريخ، أو لعلها هي ذاكرة القرية التي تنتظر من يوقظها ويعيد ترميمها واستخراج ما فيها من نفائس.

بدا له أن وسم القرية وتاريخ تأسيسها وعلاقة ذلك بالعين التي

كانت تسقيها بالماء كلّه كامن في هذه البئر التي كانت في زمن غابر عينًا جارية تفيض بالحياة.

استطاع مرعي إقناع عدد من رفاقه وزملائه في الدراسة بمشروع التنقيب داخل البئر، وحفّزهم على ذلك بشواهد إنسانية عبر التاريخ.

وبطريقة مشوقة ذكر لهم بعضًا مما تحتفظ به ذاكرته من أساطير تتعلّق بالآبار، رابطًا ذلك بالأثر الحضاري الذي تحتفي به الجامعات في قاعاتها ومؤلفاتها كما تحتفي به ذاكرة الناس في مدنها وقراها، وقد جعل من شمس، تلك المرأة التي عبرت القرية، أنموذجًا إنسانيًّا ترك أثره منقوشًا في أعماق هذه البئر التي نضب ماؤها ولكن حكاياتها لما تنضب بعد. قال ذلك وأضاف إليه ما يصحب هذا التنقيب العلمي من بَرَكَةٍ تعادل أضعاف بَرَكةِ الماء، فإذا كان الناس يحتفلون بالماء في زمن العطش، فإنّهم يحتفلون ويحتفون بالعلم في كل زمان.

كان الفريق مكوّنًا من مرعي رئيسًا، وخمسة أعضاء، أربعة من زملاء الدراسة، بالإضافة إلى هليّل صديق الطفولة، وقد انتخبه لهذا الأمر بسبب قدرته على التعامل مع الآبار منذ فترة الطفولة.

طول هليّل ونحولته ورشاقته كانت تؤهّله لأن يكون غوّاصًا ماهرًا في الآبار، وقد كبرت معه هذه الهواية، فكانت محلّ اهتمامه إذ صار بسببها ينزل إلى الآبار لإصلاحها حين يشحّ الماء فيها أو حتى لإخراج ما يسقط فيها من دواب سائمة أو تنظيفها من مخلّفات الريح والمطر. لم يكن ينافس (هليل) في هذه الموهبة سوى جاسر منذ أيام الطفولة

وكان بينهما تنافس وتحديات في الغوص في آبار القرية، غير أنّ اختيار جاسر الأسفارَ الطويلة خارج القرية جعل هليل الخيار الوحيد لهذه المهمة.

لم يكمل هليّل تعليمه لكنه أفاد من هذه الهواية التي صارت عملاً له إلى أن انضمّ فيما بعد إلى شركة حفر الآبار، بعد أن فشل في إكمال مسيرته الدراسية في المعهد الفني.

أعاده مرعي إلى أن يكون عضوًا في فريق الجامعة، وأوكل إليه مهمّة التدريب على النزول إلى البئر، وكان بوسعه أن يكّلفه وحده النزول ليكفيهم مشقّته، بيد أنّه أراد أن يتعلم هذه الهواية للمستقبل ولفحص البئر بنفسه، فقد تفوت على هليّل كثير من النقوش التي ليس بوسعه أن يستخرجها من البئر، وإنما عليه أن يقرأها وينقل رسمها كما هي لفكّ أسرارها فيما بعد.

حين فرغ مرعي من تكوين فريق التنقيب رأى أن يكتب لربيع بذلك وأن يطلعه على آخر أخبار مشروعه البحثي فيما يتعلّق بالقرية، فكان من ضمن ما ذكر له في رسالته:

«... رأيت أن أعود إلى القرية مجددًا، وأن أقرأ ملامحها بتأمّل وبحسّ باحث أثريّ، كما طلب مني أستاذي د. جهاد، وبالفعل عدت إلى مرابع طفولتنا، إلى تلك البئر المحميّة، المسوّرة بالموت.

سأحاول استنباط ما فيها من نفائس مخبوءة، فهي المخطوط

الأهمّ الذي لا بد من فكّ شفراته وطلاسمه أولاً، ثم الانتقال بعد ذلك إلى عالم المخطوطات في المكتبات.

ولهذا الغرض قمت بتكوين فريق عمل للمشروع، فعدنا إلى الاجتماعات القديمة، وإلى التجوال في القرية، ولكن هذه المرة، بروح الباحثين العلماء.

لا أخفيك أنّي شعرت فور البدء بالعمل أنّ البئر بدأت تنبض بالحياة، وأن الشمس ستشرق من فوّهتها كما تشرق من خلف جبل القرية معلنة الحياة من جديد».

حين قرأ ربيع رسالة مرعي شعر بسعادة بالغة وشوق إلى القرية، كما تجدّدت رغبته في لقاء شمس الدمشقيّة، ما جعله يردّد مفارقة عجيبة، بدت تلوح له، حين قال بينه وبين نفسه: «وطن يبحث عن امرأة، وامرأةٌ تبحث عن وطن. مفارقة من مفارقات الحياة».

- ٧ -

لم يضع ربيع في حسبانه أن يؤدّي تطفّله، هذه المرة، إلى حكاية حزينة موجعة،حين سأل شمس عن سرّ الشال الأزرق الذي تلفّه دائمًا على وجهها مع كل لباس تحضر به إلى الكلية.

تردد كثيرًا قبل أن يبادرها بالسؤال، خشية أن تعد ذلك تدخلاً جريئًا في خصوصياتها، إضافة إلى أنه قد يبعدها عنه وربما فسّرته بمحاولة غير مهذّبة للاقتراب من عالمها الخاص وتجسير علاقة خارج الحرم الجامعي.

يدرك ربيع قبل غيره أن شمس صارمة في هذا الجانب ولا تسمح لأحد بالتسلل إلى تفاصيل حياتها، ولولا شعوره أنها بدأت تبوح له من تلقاء نفسها بأشياء تعد من عالمها الخاص ما تجرأ على السؤال. خفّف ذلك من وطأة الحرج الذي حبس سؤاله كل هذه الفترة، وبعد استدراج سياقي جعل الشال الأزرق موضع اهتمامها، سألها، متظاهرًا بعدم التطفّل، عن سرّ ارتدائه باستمرار.

كان سؤال ربيع في مكانه، لهذا بدا متوافقًا مع سياق الحديث، برغم أنه كان منذ فترة يبحث عن سياق من أجل هذا السؤال الذي يبدو

له ساذجًا لولا أنّه يتعلّق بهذه الفتاة الدمشقيّة التي تشرق كل صباح من داخل هذه الزرقة اللافتة. دون أن تشعر وراء سؤاله بتطفّل، قالت وهي تشير إلى جهازها الخلوي:

«في ذاكرة الجهاز أحتفظ بصور لأختي التوأم التي فقدتها في الحرب. كان هذا الشال هو الفارق اللوني بيني وبينها من أجل أن يعرفنا الناس في الحيّ. بل قل من أجل أن تعرف أنها ليست أنا».

قالت هذه العبارة مشفوعة بابتسامة حاولت أن تخفف بها الشعور بالحزن الذي لم تستطع مقاومته.

وأضافت مستدركة بنبرة الحزن نفسها:

«الحقيقة أن تشابهنا أو قل تماثلنا بدا مزعجًا لأهل الحيّ، ولنا أيضًا؛ فكل حادثة ترتبط بإحدانا تتم فيها الإشارة إلى المكان الخطأ. كان ذلك محل تندّرنا في بداية الأمر، لكنه بعد ذلك صار سببًا في ضياعنا.

لم يعد أحد يعرف إحدانا من الأخرى. أختي اسمها بدور، وكانت تذهب إلى السوق في المساء، في حين كنت أتبضّع لأهلي في الصباح، وهكذا اقتسمنا الزمن بيننا بإيحاء من اسم كل واحدة منّا.

أبي وأمي كانا كبيرين في السنّ، وأخونا الوحيد أصيب شهيدًا في بداية الثورة، وهذا ما جعلنا نقوم بأعباء المنزل حتى حدث ما حدث.

في أحد المساءات الحزينة خرجت أختي ولم تعد. بحثنا عنها فلم نعثر علي شيء يدلّ عليها سوى الشال الأزرق الذي تراه.

بعد فترة أخبرونا أنها ماتت في تفجير جماعي مع جنود مرتزقة كانوا يقيمون في الثكنات العسكرية.

فرحت كثيرًا حين علمت بوفاتها لاطمئناني أنها صعدت إلى السماء.

فرح أبي أيضًا، وفرحت أمي كذلك، لكن فرحها كان ينطوي على حزن عميق أودى بها في زمن قصير، فلحقت بأختي، ولحق بهما أبي بعد فترة.

بقيت وحدي مع هذا الشال الأزرق الذي يشعرني أحيانًا بوجود أختي معي، غير أنّي في كثير من الأحيان أشعر أنّه لم يمت أحدٌ سواي».

نظر ربيع إلى شمس. أدرك أنّه انزلق في حكاية أطول مسافة مما يتوقّع، وأن لهذه الحكاية أختًا أخرى هي التي ساقت شمس إلى هذا المكان، حيث يجلسان في المقهي على ضفاف شارع خال إلا من حكايات الناس الغابرين، ليس حولهما سوى متحف آثار قديم تنبعث منه رائحة الفقد، يظهر في الشارع المقابل للمقهى مسيّجًا بسياج حديدي يوحي بصمت المكان وحزنه العميق.

حينئذ أدار الحديث باتجاه الطب فسألها عن سبب اختيارها تخصص طب الأطفال وفي ذهنه أن كونها شابّة يقلّص مساحة اهتمامها العاطفي بالأطفال لمصلحة الزوج المرتقب، لكنه لم يفصح عن ذلك حياء وحرجًا.

أجابت شمس، وقد بدا عليها شيء من الاستغراب، فسؤال كهذا يبدو غريبًا بالنسبة إلى فتاة وقفت بنفسها على مأساة إنسانيّة تتعلّق بالأطفال أكثر من غيرهم:

«من الطبيعي أن يتجه مثلي إلى طب الأطفال فقد لمست بنفسي حاجة العالم إلى هذا التخصص في زمن أكثر ما تغتال فيه هذه الطفولة البريئة. من حق كلّ الأطفال علينا أن نترك لهم عالمًا خاليًا من الأمراض، وأن نعدّ العدّة لمحاربة كل ما تتركه هذه الحروب الطاحنة من آثارٍ هم أكثر من يتضرر منها، فالكبار قد عاشوا جزءًا كبيرًا من حياتهم خارج هذا الصراع الدامي، في حين أن الأطفال قد يبدأ وعيهم بالوجود على هذه المآسي التي قد تحيلهم إمّا إلى مرضى منهكين وإما إلى وحوش ضارية تفترس الآخرين وتزيد هذا العالم وحشية وافتراساً».

وبعد تنهيدة طويلة أضافت وهي تلتفت إلى جهة الشارع المقابل:

«أحلم، يا ربيع، أن أعود إلى سوريا بشهادة الطب وقد بدأت الحياة تزدهر فيها من جديد، لتكون بدايتي مع بداية تطهير البيئة من أنفاس المجرمين المشبعة بالغازات السامّة وآثار الأسلحة البيولوجيّة. لا شيء يعدل عندي ترميم هذا العالم وتأثيثه للطفولة الحالمة التي تدخل إلى عالمنا ببراءة لا تحمل أيّة فكرة سابقة عن الصراعات والأطماع».

كان ربيع ينصت كما كان ينصت في قاعة الدرس، وفور فراغها من الحديث ذكر أنّه اختار هذا التخصص لسبب قريب من هذا، بيد أنّه

كان سببًا لا يتجاوز التجربة القصيرة التي مرّ بها في القرية حين دهمت الأمراض قرية عين شمس، فلم يكن لدى أهل القرية آنذاك حلول أخرى سوى إشعال النيران لمياسم الكيّ.

كان كل داء له ميسم ومكان وسم في جسد الطفولة الغضّ.

يذكر أنّ بطن هليّل كانت مزدحمة بكيّات تشبه جدارًا قصيرًا فوق سرّته، كما أنّ رقبة جاسر موسومة هي الأخرى بوسم بعير، وحتى مدير المدرسة وهو الرجل الكبير لم يسلم من كيّة ظلّت علامة فارقة في خدّه الأيسر.

يدرك أنّ البدو قديمًا كانوا يكوون طلبًا للسلامة ولجلب مزيد من العمر للمريض، بيد أن مغالاتهم في العلاج بالكيّ أحال طبيب القرية في تلك الفترة إلى رجل مخيف لا يبعد كثيرًا عن أي جلاد، إذ بمجرّد ما يسعل الطفل أو تزداد عنده نسبة السعال يكون معرَّضًا لكيّة تستأصل هذا الصوت من أساسه.

قال، وهو يشير إلى مكان كيّة رابضة في جانبه الأيسر، بين خصره وكتفه:

«هذه الكيّة هي وسم قريتنا، لا يكاد يخلو منها أحدٌ عاش تلك الفترة من جيلنا».

ضحكت شمس بصوت مرتفع قليلاً. للمرة الأولى يسمع صوتها الضاحك. بدت له الضحكة علاقة تواصل جديدة تتيح له أن يقترب من عالمها أكثر.

نعم هذا الصوت هو الجسر الجديد الذي تمدّه شمس، بقصد أو بغير قصد، صوت الشعور القلبي حين يفيض ويبلغ مداه، حين تتجاوز إيماءة الشفتين بابتسامةٍ غامضة عصيّة على التأويل.

هل كانت هذه الضحكة العفويّة دعوة منها أن يقترب أكثر؟!

سؤال هجس به ربيع، وبهمس قال في نفسه:

«ميسم شمس مختلف تماماً عن مياسم القرية».

- ٨ -

تبدو البئر من داخلها موحشة.

ظلمةٌ سحيقة بعيدة الغور حتى إن سلالمها الحديدية الصدئة لتبدو لرائيها طريقًا إلى الجحيم الأرضية؛ الأمر الذي يبعث في النفس الهلع والتردّد قبل وضع القدم على أوّل دركة من دركات السلم، ذلك الهلع الذي كان سببًا في سقوط معضد إضافةً إلى فحيح الثعابين في ذلك الوقت.

سقط معضد بزلّة قدم إثر رؤيته ثعبانًا يمدّ لسانه من بين شقوق البئر، وقبل أن يتمالك نفسه وجدها محاطة بعدد من أفواه الثعابين الجائعة التي تبعته إلى أعماق البئر.

بعد معركة شرسة استطاع أحد الرجال استخراج جثّته من بين أفواه الثعابين مستعينًا بسيف صقيل خرج به يقطر دمًا، كما أخرج جثّة معضد ممزقّة ينزف الدم منها من كلّ موضع.

ظلت هذه القصة حاضرة في الأذهان مع كلّ محاولة لنزول البئر، حتى بدا لأهل القرية إغلاقها خشية على الصبية الصغار الذي يرتادون المكان في وقت اللعب.

منذ تلك الفترة بدأت هواية هليّل اقتحام الأماكن الخطرة لإثبات قدرته على تحدي الصعاب، وبرغم أنه كان يتسلل إلى البئر خفية إلا أنه لم يكن ينزل سوى دركات معدودة لا يزيد عليها. يخرج بعدها ويعيد الغطاء الحديدي إلى وضعه السابق كي لا يكتشفه أحد.

بعد أن كبر نقل هذه الهواية إلى الآبار الأخرى، ولم يعد لبئر القرية المحظورة إلا حين اضطرّ الأهالي إلى الكشف عنها إثر حادث جديد، حين توقّعوا أن ثمة أسلحة ممنوعة خبّأها أحد المنتسبين إلى الجماعات المسلحة في البئر، ورغبة في السلامة وعدم المساءلة من الحكومة أرادوا الاطمئنان إلى أنّ البئر لم تتحوّل إلى مخبأ سري لأسلحة من هذا النوع.

حين عاد هليّل إلى البئر بوصفه عضوًا في فريق التنقيب شعر للوهلة الأولى بصعوبة الأمر وخطورته؛ فجسمه قد فقد شيئًا من رشاقته الأولى، وقدمه نسيت موضعها الآمن في دركات السلّم الحديدي.

شرع في النزول الأول كدلو جديد لم يعتد جلب الماء من الداخل.

احتاج نزوله هذه المرة إلى الاستعانة بحبل احتياطيّ، حتى إذا بلغ منتصف البئر نظر إلى أعلى فوجد أن فوّهة البئر قد بدأت تضيق كما لو ابتلعه كائن خرافي، ثم نظر إلى الأسفل فلم يرَ سوى ظلام كثيف يوحي له بامتداد البئر إلى الأبد.

في جدار البئر الحجري نظر فرأى بعض الشقوق التي تتسع

لإدخال اليد. تذكّر حكاية معضد، فخشي إن هو مدّ يده داخل الجحر أن يوقظ ثعبانًا نائمًا داخل الدهاليز التي قدّر أنها عروق البئر المخبوءة وراء الجدار الملتفّ في شكل دائرة حجرية.

بشجاعة أدخل يده، وهو يتمتم بالأذكار، فتحسس ورقًا ملفوفًا داخل الجحر. أخرجه بسرعة فإذا هو مربوط بأسلاك دقيقة. وضعه في جيبه وواصل النزول إلى أسفل، حتى بدا له جحر ثالث لم يجد في داخله ما يستحقّ العودة به. حين أنهى مهمته خرج بالورقة التي حسب أنها مطلب مهمّ لفريق التنقيب الجامعي. قال في نفسه:

«لا شيء في حياتهم يستحق العناية سوى هذا الورق القديم، المخبوء داخل هذه الآبار المهجورة».

التقط مرعي اللفافة بشعور صيّاد عتيق، وعلى الفور دفعها إلى أحد الرفاق باعتبارها صيد اليوم النفيس.

داخل مكتبته الصغيرة في القرية كان موعد الجميع مع حلّ الرباط الملفوف على الورقة، وقد بدا الأمر صعبًا من جهة، ومخيفًا من جهة ثانية. كانت الورقة أشبه بقطعة توشك أن تتحول إلى فتات من الورق فور حلّ الأسلاك، فيما تبدو داخلها شعيرات تظهر من طرف اللفافة، وهو ما جعل أعضاء الفريق كافة، يشعرون بالخوف من نتيجة حلّ هذه اللفافة وتفكيكها.

قال مرعي، فيما هو يقلّب اللفافة بحذر:

«تبدو أشبه بعقد السحر.. أليس كذلك؟».

أجاب هليل:

«إن كانت سحرًا ستجد الطلاسم في داخلها.. لكن عليك قبل أن تفتحها أن تكرر قراءة آية الكرسي والمعوذات مع كلّ عقدة تحلّها».

تدخّل أحد أعضاء التنقيب على الفور مشيرًا إلى أن حلّ السحر لا يكون بهذه الطريقة وإلا لتحوّل السحر على جالب اللفافة، وأشار إلى هليّل، الذي بدا للفريق أنه الضحية الأولى لنتائج هذه العمليّة.

ابتسم هليّل، وقال في ثقة:

«افتحها ولا تفكّر.. فقد مزّقت أكثر من لفافة ورقية حين كنت أنظّف آبار القرية».

ابتسم مرعي وقال معلقًا على الموقف:

«كلما ازداد العلم ازداد الخوف واتّسعت دائرة القلق».

فور حلّ اللفافة، بعد قراءة المعوذات، أصيب الفريق بمفاجأة باردة، فلم تكن اللفافة سوى بعض الحصيات والشعيرات الملفوفة داخل ورق مطويٍّ بشكل اعتباطي، وإن كان بعض الرفاق أصرّ على أنّها نوع من سحر المحبة الذي هو أقلّ أنواع السحر خطرًا، فهو ليس أكثر من ربط علاقة بين اثنين، وغالبًا ما يكون هذا النوع في البادية لاعتقاد النساء أنّ الرجال حين يصابون بهذا الداء يبذلون كلّ ما في وسعهم لإرضاء المرأة وجلب السعادة لها، في حين علّق البعض الآخر على أنّ البدو لا يعرفون هذا النوع من السحر، فحياتهم تلقائية وعلاقاتهم تنشأ بناءً على روابط النسب.

علّق مرعي، بعد أن فرغ الجميع، بأنّ قريتهم منذ نشأت لم يؤثر عن أحد منهم ولا حتى كان يدور في مجالسهم الحديث عن السحر برغم ما يحدث من نزاع وحسد بين الأقارب، فالقرية في أساسها متديّنة وتعرف أن مجرّد الذهاب إلى الساحر كفر، وأضاف إمعانًا في دفع الوهم:

«.. إن كان من السحر كما أشرتم فقد يكون من القوافل العابرة التي تبيت على أطراف المدينة، لكن يبدو لي أنّ ما بين أيدينا لا يضيف شيئًا إلى تاريخ القرية ولا يكشف عن شيء يتعلّق بها، فلا يحسن أن نشتغل به، ولننتظر ما تجود به مغامرة هليّل القادمة».

كان مرعي قد اقتنع حين رأى بعينيه ما يواجهه هليّل من صعوبة ومشقّة عند نزول البئر، أن يوكل الأمر كلّه إليه.

قال للرفاق معلقًا على ما يرى وهو على مقربة من حافّة البئر:

«يبدو لي أن هليّل هو الأقدر على هذا العمل، ولا حاجة بنا للتجارب الفاشلة، فليكن لكل واحدٍ منّا عمل يوافق قدراته. هناك من يجلب، وهناك من يقرأ، وهناك من يحلّل ويسبر، فقيمة كلّ امرئ ما يحسنه».

ضحك الجميع باستثناء هليّل الذي غاب داخل البئر، وقد علّق أحدهم على مرعي في دعابة ساخرة:

«هذا ما يفعله فلاسفة العالم حين يعجزهم فعل شيء».

-٩-

في خلوة مسائية شديدة البرد،من غرفة تطلّ نافذتها على ليل كئيب يمتدّ ظلامه وراء الحدود التي لا بد أنّ ربيع يشعر برغبة في أن يجتازها باتجاه المشرق حيث يستقرّ عالم صاخب بالناس المألوفين سحنة ولغة وطبيعة مزاج.

بدا ربيع هذا المساء في حالة شعورية عميقة عصفت بكل أحلامه القديمة والجديدة وأعادته إلى تلك الفترة الزمنية التي كان يقطع فيها زقاقًا ضيّقًا بين بيتهم وبيت صديقه مرعي، ذلك الزقاق الذي كان يلتقي فيه سمر وهي عابرة باتجاه بيت خالتها فتنفحه بعطر خفيف لا يزال يحتفظ بعبقه في الذاكرة.

عادت به حالة الشجن هذه إلى ذلك الزقاق الضيق المزدحم بالتفاصيل الصغيرة بدءًا بأصوات الدواجن وانتهاءً بما يهجس به قلبه لحظة عبور سمر ملتفّة بعباءتها القصيرة. تساءل:

«هل كانت لقاءاته بشمس في المقهى، وأخيرًا في النادي الرياضي، تعدّ خيانةً لسمر؟ هل لا يزال على استعداد للزواج بسمر حين العودة إلى القرية بشهادته الطبيّة أم أنّه سيغيّر رأيه ويخذل حبّه

القديم، بل يخذل رغبة مرعي في مصاهرته؟ أم أنّ مرعي هو الآخر نسي هذا الاتفاق الطفولي بسبب بحثه عن شمس التركية في قاع بئر مهجورة؟».

لا يبدو مرعي مهتمًا بأمره وإلّا لحذّره، أقلّه، من شمس؛ خصوصًا أنّ كل ما يحدث بينهما من لقاءات ونقاشات تصله عبر الرسائل الإلكترونية، فهل كان مرعي مفرطًا في ثقته أم أن العقد القديم هو الذي انفرط بكل ما فيه من رغبات طفوليّة؟.

شمس تبدو فتاة مثقفة، فوق أنها جميلة وجذّابة، وفوق أنّها غصن لدن يبحث عن شجرة ينتمي إليها، وهي، أقلّه في ظلّ الظروف الراهنة، أنسب فتاة تصلح للزواج لتسدّ فراغًا عاطفيًّا وتملأ وقتًا بات أوسع من ذي قبل، وأكثر كآبة وأوجع فقدًا، سواء للقرية وناسها، أو لسمر نفسها التي قد يتأخّر الاقتران بها بسبب الدراسة.

لكن هل يكون الاقتران بشمس حلّاً أم عقدة جديدة وإيغالاً في الابتعاد عن أرض الوطن، عن القرية بكل ما فيها من تفاصيل حميمة؟.

سمر هي الأخرى تزداد قربًا كلما ازداد بعدًا عنها. ملامحها التي تختزن ضوء شمس القرية الدافئ شتاءً، عيناها الذاهلتان في أفق الحلم، وشعرها الذي ينساب كنهر حرير، وقوامها المعتدل طولاً، ورقبتها التي لا تشبه سوى رقبة غزال نافر. جمالها المسروق من جمال أمها كما يردد ذلك أهل القرية حين يرونها تعبر الشارع صغيرة قبل أن تحتجب. كل

هذه التفاصيل حين تحتشد في مخيّلة ربيع لا تحجب شمس الدمشقية فحسب، بل تحجب كل ضوء يحاول صرف نظره عنها.

سمر التي تومض الآن في الأفق البعيد وشمس التي تشرق كل صباح في قاعة الدرس ليس لهما مدار في هذه اللحظة سوى قلب ربيع، وقد شعر أنّه انشطر نصفين، بين رغبة جديدة، أقرب إليه من حبل الوريد، ورغبة تنام في أعماقه، لكنها لا تزال حيّة، كجمرة تومض تحت الرماد.

تنهّد ربيع وبدا له أنّ سوء حظه ساقه إلى حاضر قَلِقٍ، فتمنّى أنه مكان مرعي، وأنّه سلك طريقًا إلى ماض ليست فيه المرأة سوى ذاكرة منطفئة، أو مخطوطة في قاع بئر، أو حتى محبرة لا تتجاوز رغباتها أكثر من أن تكون سطرًا في كتاب تاريخي لا يحترق بواقع ولا يألم بحاضر.

هل كان مرعي مدركًا لهذه المآلات حين صرف عمره إلى بطون الكتب وذاكرة التاريخ فاختار شمس التركية، التي خمدت نارها وانطفأت منذ زمن؟. كان إذن على حقّ وهو يصرف نظره بالكلية عن الحاضر الماثل ويستمسك بتراث القرية وتاريخها، وتكفيه عن ذلك كله هذه العلاقة العاطفية التي تبدو في شغفه بالعلم وتاريخ الحضارة.

لم يكن ربيع ليقع في هذه الحيرة لولا أنّ هامشه اتّسع على حساب الدراسة في الكلية، فقد ظن علاقته بشمس ستقف عند حدود ما يطرح في قاعة الدرس، ولم يكن في حسبانه أنّ تلك الاستطرادات

التي تخرج قليلاً عن المتن ستفضي به إلى عالم آخر، ليس خارج الكلية فحسب، بل خارج حدود قريته ووطنه.

يشعر هذه الليلة أنه أمام منعطف حاسم، فإمّا أن يعود أدراجه ويطوي كل لقاءاته مع شمس، من أجل سمر أولاً، ومن أجل حلمه المشترك مع مرعي حين قررا معًا أن يعودا إلى القرية لينهضا بحاضرها وماضيها، وإما أن يحرق كلّ ما سلف ويفتح نافذة جديدة ليسمح لشمس الدمشقية بالدخول إلى عالمه وإلغاء كلّ ما سواهما.

برغم كل هذه الهواجس إلا أنّه لا يعلم ما مصيره في نظر شمس نفسها؟. هل تلك اللقاءات غمرتها برغبة تعادل رغبته؟ أم أن لها وجهة أخرى وعلاقة سابقة تنتظر بها عودة الوطن حين يزدهر من جديد؟ الشيء الوحيد الذي لمسه منها هو هذا الإقبال الذي آثرته به دون غيره من الزملاء، وقد تولّد منه تبادل حكايات وأحاديث شتّى أعقبت في نفسه هذا الشعور الجديد.

داخل كل هذه اللجج الشعورية غطّ في نومة عميقة تدلّى من خلالها إلى حلم أعاده إلى قرية عين شمس في رحلة مناميّة تجاوزت به المكان والزمان، فرأى نفسه مع رفاقه وقد تحلّقوا في جلسة من جلسات الشتاء المعتادة خلف البيوت، فيما يظهر في الجهة المقابلة بعض الفتيات وقد انهمكن في حديث تتطاير منهن الضحكات فتمسّ شيئًا من أحاديثهم. كان ربيع يخوض لجة زمن قديم قبل أن يلتحق

بالجامعة، وقد بدا الحلم ممزقًا من حوادث متفرّقة، أبرزها هذا المشهد الذي بدا له ذا دلالة رمزية قابلة للتأويل:

«رأى بئر القرية تنفث ناراً من أطرافها، فيما أهالي القرية لا تبدو عليهم ملامح الرعب، وقد بدا الضوء يغمر القرية من كل جهاتها».

في الصباح الباكر انطلق ربيع إلى الكلية بعد ليلة مزدحمة بالشجن والحيرة، ومع ذلك فقد كان الشوق يدفعه إلى قاعة الدرس دفعًا. سيرى هذا اليوم «شمس» بشعور جديد، سيقرأ ملامحها أكثر، وسيعيد ترتيب نبضه تجاهها، أهي زميلة دراسة في الطب؟ أم هي أبعد من ذلك كما بدأ يشعر أخيراً؟.

حين وصل إلى القاعة فوجئ بحدثٍ جديد على غير العادة المألوفة. لما تحضر شمس بعد، وهي التي كانت في كل الأيام الماضية تسبقه إلى المقعد على طرف القاعة الأيمن.

تأخّرت هذا اليوم.. شيء غريب حقًا، هل كانت ليلة البارحة تهجس هي الأخرى مع طيفها البعيد؟ هل كانت تبادله التخاطر مساءً؟ أم أنّ في الأمر ما يقلق؟.

أسئلة بدأت تدور في ذهن ربيع وهو مكبٌّ على كتاب الطب لابن النفيس، يسترجع بعض الدروس الطبية القديمة. يقرأ عن المزاج الصفراوي والدموي، وعن عناصر الطب القديم، وبعض الوصفات العلاجية القديمة التي في العصر الوسيط، كما يقرأ عن بعض أمراض الطفولة في العصر التقليدي القديم.

على وجه السرعة جمع نتفًا من الكتاب استعدادًا لنقاش اليوم مع البروفسور الطبي ومجموعة الدراسة. لم يتوقّع إطلاقًا أن تبدأ المحاضرة دون حضور شمس. ما زال غيابها يلفّ القاعة بخمول يجده في فتوره وعدم رغبته في مشاركة الزملاء في نقاش اليوم، مع أنّه أعدّ نفسه جيدًا لخوض غمار المناقشة، لكن غياب شمس أطفأ وهجه الذي قدم به منذ الصباح.

بدا المقعد الخاص بشمس خاليًا يلوّح بغياب غريب غير مألوف حتى للبروفسور الذي علّق على غياب شمس باستعارة باردة:

«يبدو هذا الصباح ملبّدًا بالغيوم».

ثم أعقب ذلك بسؤاله قائلاً: «أين شمسكم؟».

علّق أحد الزملاء، ملتفتًا إلى ربيع: «لعلّ ذلك يبشّر بميلاد ربيع جديد».

شعر ربيع وكأنما هذا المجاز الصباحي مفصل بعناية وبمكر مسبق بين البروفسور وبقية الزملاء، بل بتضامن مع شمس نفسها، بيد أنّه نفض هذه الفكرة من رأسه، وعلّق، متفاعلاً مع الدعابة المجازية:

«الربيع يتألّق أكثر في الضوء».

ضجّ الجميع ضحكًا، بمن فيهم البروفسور الذي عقّب على كلام ربيع بامتداح شمس وقدرتها البارعة على إثارة الأسئلة وتحريك الراكد، كما لفت إلى فطنة ربيع وبقية رفاقه، ثم شرع في المحاضرة معلنًا بدء النقاش حول عناصر الطب القديم.

انتهى اليوم الدراسي بأكمله ولم تحضر شمس، فعاد ربيع إلى السكن الجامعي خالي الوفاض من روحه المرحة التي كان يعبر بها الطريق ويوزّعها ضحكات صاخبة على العابرين.

صعد إلى غرفته وألقى كتبه على المنضدة، وخلع لباسه الجامعي، ثم استلقى على السرير منطفئًا يبحث عن بوابة دخول إلى حلم البارحة كي يعود إلى قريته، وفي أعماقه شعور باتساع الفراغ.

- ١٠ -

بعد محاولات عدّة تبيّن لمرعي ورفاقه أن بئر القرية ملأى بالأسرار والحكايات ؛فقد استطاع هليّل استخراج الكثير من اللفافات المربوطة التي تعود إلى زمن رجّح الكثيرون من أهل القرية أنّه زمن غابر، عدا مرعي الذي بدا له من خبرته البحثية في الطريق إلى ذاكرة القرية التاريخية أن ما تم استخراجه ذو علاقة بماضيها القريب وبأوهام باطلة كانت عالقة في ذاكرة الناس أيام الجهل.

ثمة سلاح قديم لم يبق منه سوى هيكل صدئ متمثّل ببندقية عتيقة يعتقد هليّل أنها تركية الصنع، وأنها تعود إلى زمن الوالي التركي القريب.

ما سوى ذلك لم تفلح المحاولات السابقة في استخراج شيء يمكن أن يستند إليه مرعي أو فريق العمل الجامعي في دراستهم التاريخية، حتى حان موعد النزلة المباركة كما وصفها مرعي، من بعد، حين أوغل هليّل في التدلّي إلى أعماق البئر فلم يعد يسمع أحدٌ صوته،

إذ غاب في أحشائها حتى ظنّ الرفاق أنّها ابتلعته إلى الأبد، أو أنّه سقط فريسة لأفاعي البئر.

بينما هم قلقون من أن يكون قد حدث لهليل ما حدث لمعضد، تحرّك الحبل قليلاً، ثم ازداد حركة، فهرعوا جميعًا إلى الحبل وأخذوا يشدّونه إلى أعلى. بدأت همهمة هليّل ترتفع شيئًا فشيئًا حتى خرج من البئر يتصبب عرقًا وماءً، وقد ظهر لهم كما لو كان أحد المبعوثين من القرون الأولى.

قبل أن يأخذ نفسًا عميقًا ألقى بحزمة ملفوفة في غطاء سميك. كان بحجم كتاب كبير، وفور تمزيق أحشاء الغطاء البلاستيكي تبيّن لهم أنّه مخطوط قديم ذو ورق جلدي سميك، مكتوب بحبر شديد السواد، جميل الخط، بدا لربيع أنه سلسلة من الحكايات التاريخية المرقومة بالحبر الأسود الناصع.

كاد يصرخ من شدّة الفرح، ودون شعور أقبل على هليّل وعانقه بامتنان بالغ، وأردف قائلاً:

«لولا هذا القروي الماهر في الغوص لغرقت هذه الحكايات في عمق البئر، أو أقلّه لبقيت في الأعماق إلى قيام الساعة».

لمّا يفحص مرعي المخطوط بعد، لكن وضوحه وسماكة الجلد ونضارته أوحتا إليه أن المكتوب فيه يتعلّق بأمير أو صاحب جاه قد دوّن سيرته، ولعل هذه السيرة ذات علاقة بالقرية، وربما كانت المفاجأة

فكان هذا المخطوط هو تاريخ القرية منذ نشأتها إلى تاريخ وضعه في أعماق البئر.

ذلك ما ستكشفه القراءة المتأنية ومتابعة الألواح، وهي كما يبدو تقع في حدود ثمانية ألواح، بعضها أطول وأكثر تفصيلاً من بعض، أمّا ما يخص تفاصيل المضمون فالأمر لا يزال قيد النظر، فيما تبدو الصفحات صقيلة متوازية السطور، خالية من أية هوامش جانبية حولها، وليست لها حاشية، ما يرجّح أنّها حكايات شبيهة بحكايات ألف ليلة وليلة.

قال مرعي لرفاقه، بعد أن توجّه بالشكر لهليّل:

«انتهى عملكم الآن، وبقي عملي.. سأعكف على هذا المخطوط وأقرؤه حرفًا حرفًا. فور الفراغ منه، سألتقيكم لأبلغكم بما توصّلت إليه».

ما إن خلا مرعي بنفسه حتى فتح جهاز الكمبيوتر وشرع في كتابة رسالة وجهها إلى ربيع:

«... اليوم، بتاريخ كتابتي هذه الرسالة، باحت البئر بسرّ جديد، غير تلك الأسرار الصغيرة التي تتعلّق بحاضر قريتنا.

أكتب إليك وأنا في غاية الفرح، كأنما عثرت على شمس في دهاليز البئر، عثرت عليها حيّة، تنبض بين سطور مخطوط قديم، لا يهمني بعد ذلك إن كان تقديرًا صحيحًا أن تكون زوجة جدّي الأسبق، أو حتى زوجة السلطان التركي، أو حتى زوجة لتيمور لنك أو هولاكو..

كانت رحلة البحث شاقّة، لكنها ممتعة.. شمس تضيء داخل عين البئر.. ثمة أساطير وحكايات باحت بها البئر، لكنها لا تعدل سطرًا من سطور المخطوط الفاخر الذي بين يديّ..

أدركت الآن.. أنّ الفناء في العلم، والإبحار في المعرفة، والغوص في أعماق الحياة هو إكسير الحياة.. هو السر المطويّ الذي لا يتكشّف إلا بالانهماك في عالم المعرفة الماتع..

تذكّرت.. الآن.. ما مرّ بي أثناء القراءة في البحث من أخبار العلماء والمؤرخين والرحالة.. وأدركت سرّ ولعهم بالبحث في بطون الكتب، والتفرّس في ملامح الناس، والتجوال بين مشاهد الحياة.. كانوا جميعًا يظفرون بسعادة عميقة يكتشفونها في أثناء عنائهم ومشقتهم..

لا عليك.. كل هذا لا يهم.. فالمخطوط لا يزال بين يديّ لما يبح بأسراره بعد.. أردت أن أكتب لك عن الشعور الأوّل ودهشة التلقي الجديد فقط.. وأهمس في أذنك بهذه الحقيقة التي أضعها لك مُحبَّرةً بين معقوفتين على طريقة محقّقي المخطوطات:

[كنت حين أقرأ رسائلك التي ترسلها بين فترة وأخرى أغبطك، بل أحسدك، على شمس وأحاديثها الرشيقة - كما تزعم- وبناء على ما تصوّر لي من عذوبة صوتها وجمالها الفاتن أفتح نافذة في مخيلتي وأرسم ملامحها وظلالها فأشم رائحة الياسمين والزعتر، وأقول في نفسي: لقد ظفر ربيع بالجمال الحاضر وعاش دنياه بكل ما فيها من

بهجة دون أن يفقد تخصّصه العلمي، واخترتَ أنت الماضي تجول في أتربته وتنفض غباره بحثًا عن عجوز شمطاء لو كانت حيّة لكانت مومياء في متحف فرعوني، فكم بينك وبين ربيع! وكم بين شمسك وشمسه!].

أغلق المعقوف الآن.. وتأمّل ما كتبته لك.. تأمّله جيّدًا فقد أشرقت الشمس على قريتنا من جديد..!

مرعي».

«شيءٌ لا يصدّق.. ومفارقة جديدة من مفارقاتنا». قال ربيع بصوت خفيض، وهو لا يزال تحت تأثير الدهشة وكأنما علق في السطر الأخير من الرسالة.

هل غابت شمس هنا، لتشرق هناك؟ هل توحّدت الشمسان في أعماق الأرض فكانتا من نصيب مرعي لأبقى هنا وحدي أنتظر ما يبوح به المخطوط، فقد تكون شمس الدمشقية هي نفسها شمس التركية أو من سلالتها؟ ألم تقل لي شمس، في المقهى مرارًا، إنّها رغم أنها سورية الأصل إلا أنّ عروقها التركية تنزع بها إلى ماضيها السحيق العميق؟

هجس ربيع بهذه الأسئلة والافتراضات في ردّة فعل على ما حدث بعيدًا عنه هناك، حيث القرية التي استيقظت من جديد على ضوء الشمس. قال بصوت، يُسمِعُ نفسَه:

«لعل المخطوط الذي بين يدي مرعي الآن يكشف حقيقة غائبة لم تكن مهمة قبل اليوم، أقله بالنسبة إليّ، فأنا أشدّ حاجة منه إلى شمس، ولو من خلال الرسائل، وقد آن أن نتبادل الأدوار فيما يخصّ البحث عن شمس!».

الفصل الرابع

زمن الاستواء

حكاية المخطوط
[اللوح الأوّل]

«في شهر رجب المحرم، عام ١١٢١ من الهجرة النبويّة، وصلت قافلتنا إلى مشارف مكة حرسها الله، على بعد مسافة ليلة واحدة، قبيل وادي سَرِف[١]. قطعنا الصحراء الجرداء في شهرين بين تركيا والحجاز، وقبل أن نشرف على الوادي، المسمى مرّ الظهران، وكان واديًا كثير الآبار والينابيع بحسب ما أورده الرحّالة الذين دوّنوا معالم الحجاز في رحلاتهم، أحاط بنا عدد من البدو الذين يرصدون طرق القوافل، فينتزعون ما يضمن بقاء عيشهم في الصحراء، تارةً بالسلب والنهب، وتارةً بالمسألة وعرض حاجتهم الشديدة، وتارة أخرى بطرق تجارية مشروعة. قال أبي حين رأى ملامح وجوههم المنحوتة، وأسمالهم البالية الرثّة:

(١) وادي سَرِف، واد مشهورٌ شمال مكّة، يبعد عنها مسافة تقدّر بخمسة عشر إلى عشرين كيلو مترًا، تقريبًا. (مرعي).

«فلنعطهم ما يسدّ حاجتهم، قبل أن ينهبوا ما يفوق هذه الحاجة»[1].

عقب الانتهاء من حديثه سمعت أحدهم يتحدّث بنبرة عالية، فهمت من أبي لاحقًا، أنّه أحد فرسان القبائل الذين يوفّرون الحماية للقافلة مقابل ثمن يتقاضاه هو ورفاقه حين تطمئن القافلة إلى أنّها قد شارفت على حدود الحرم.

كان فارسًا فارع الطول كرمح منتصب باتجاه السماء، يشدّ وسطه بحزام جلديّ، ويعتمر عمامة مكوّرة على رأسه كخوذة محارب. عيناه واسعتان، حادّتا النظر، تحت اليمنى منهما ندبة تزيده هيبة في نفس رائيه، وله صوتٌ صقيل لا صخب فيه، يصل إلى السمع في وضوحٍ، وكان يتحدّث بكلام عربيّ بيّن أعرف بعضه مما استقرّ في ذاكرتي من حكايات جدّتي ذات الأصول العربية،أو مما أسمعه من أبي الذي كان يتحدّث العربية بخبرة تاجر السوق.

قبيل غروب الشمس أنخنا رحالنا في ربوة تشرف على واد فسيح، وعلى الفور بدأ الرجال بملء المكان بالحطب وجلب ما تحتاج إليه القافلة من الماء، ثم أشعلوا النار، وتحلّقوا حولها يستدفؤون ويتجاذبون أطراف الحديث حول لهب النار المتصاعد.

كان أبي تاجرًا، وكان يبيع بضائعه على المكيين في السوق،

---

(١) في هذا إشارةٌ إلى زمن الجوع الذي أصاب منطقة الشريط الساحلي خصوصًا، ومنطقة نجد من باب أولى باعتبارها أوغل في الصحراء العربية (مرعي).

ويستعمل منهم صبيانًا في التجارة، يخدمونه مقابل مصروف يومي، قرش أو قرشين، يتقاضاها الصبي، ثم يعود إلى مثلها في اليوم التالي.

في البدء لم أكن أظنّ للعرب هذه الجاذبية حتى رأيت هذا الفارس الأسمر، ممشوق القامة، وكانوا يدعونه: «المرواني»[1].

عرفت فيما بعد أنّ المرواني سيّد القافلة،و أنّه وأصحابه يتنقّلون عبر الخط الصحراوي المحاذي للشريط الساحلي بحثًا عن الماء والكلأ، وهي عادة عربية منذ القدم، حيث لا مساكن سوى ظلال السحب ومنتجعات الرعي.

يقول أبي: إنّهم حين يطول غياب المطر يضطرون إلى القيام بعمل الدليل الصحراوي على الطريق الساحلي بثمن يضمن لإبلهم ومواشيهم البقاء على قيد الحياة ومدّهم بأسباب العيش.

---

(١) ذكرت الساردة فيما بعد في الصفحة نفسها أنَّ لقب المرواني وصفٌ مشتقّ من حجر المرو وهي بذلك لا تنسبه إلى فخذ معروف في قبيلة جهينة، وهي قبيلة تسكن على الساحل البحري على امتداد طريق المدينة، وموقعها ينبع، وقد يرد هنا إشكالٌ: هل للمرواني علاقة بهذه القبيلة ؟ أم إن اسمه مجرّد وصف خاص راجعٌ إلى صفته الشخصية التي ألمحت إليها الساردة ؟ يرجّح الباحث أن المرواني هنا وصفٌ خاصّ لا علاقة له بالقبيلة المعروفة، لكنه لا يستبعد هذه العلاقة فيما لو أثبتت الوثائق التاريخية ذلك، وهو ما لم يتحقق له في عدد من وثائق تتعلّق بهذه المنطقة موضع البحث، إذ ترد رواية واحدة يمكن الاستناد إليها كأصل تاريخي. (مرعي).

لقبه «المرواني»، فيما علمتُ مشتق من حجر «المرو»، وهو حجر يستعمل في إشعال النار بقدح حجرين منه. ولعل أصحابه يتخيّلونه كذلك، فعيناه النافذتان حجران من المرو يتفرّس بهما ملامح الوجوه الغريبة وكأنما تقدحان شررًا[1].

(١) سبقت الإشارة إلى ترجيح علاقة اللقب بهذا الوصف، ينظر الهامش السابق. (مرعي).

[اللوح الثاني]

كان أبي لا يخفي دهشته من قدرة البدو على الإحاطة بهذا الفضاء الشاسع من الأرض، لكنه ازداد دهشة وتعلّقًا بهم حين عرف «المرواني»، بعد أن اكتشف لديه قدرات أخرى لا يتمتع بها سائر رفاقه.

أحاديثه عن المرواني كانت تجعل لنا الطريق خصيبا. قلت له يومًا: قد لا نحتاج إلى هذا المحمل التركي الذي يبطّئ طريقنا لكثرة ما ينيخ الركاب على الطريق؛ فالمرواني يغذّ بنا السير في غيابه مرويًّا في حكاياتك، وفي حضوره حين يتقدّم قافلتنا بجمالهم الحثيثة في الخطو والحداء.

حين تنتهي حكايات أبي يلوح في الأفق بياض رجال ينتظرون قافلتنا على مسافة ثلاثة فراسخ أو أكثر.

في الطريق يرتفع صوت الحداء. صوتٌ شجيّ يملأ الأفق نغمًا. همهمات بدويّة لا أجد لها مذاقًا في عقلي، ولكني أشعر بها تستقرّ في أعماق قلبي، حين تنفتح ذاكرتي في هذا الأفق الليلي الممتد.

ينطلق الصوت إلى أعلى. تسرع الإبل في سيرها، فتمتزج أصوات

وقع خطاها بنغم الحداء، فإذا القافلة معزوفة موسيقية تعبر فضاء الليل عبر النجوم المزدحمة في الأفق.. حفلة عرس بدويّة في قبّة السماء.

في مبيتنا الأخير سألت أبي: من صاحب هذا الصوت؟ أجابني، بكثيرٍ من الارتياح: المرواني، وهذه إحدى مواهبه التي يفوق بها أقرانه.. يحلّق بهم عبر هذا الصوت إلى فضاء نوراني لست في حاجة معه إلى أن تفهم ما يقول، بل إلى أن تنصت إلى ما يرسل من غناءٍ شجيّ.

«لا أنا، ولا الإبل، نفهم هذا الحداء، ومع هذا نطرب جميعنا، فنستحثّ الخطى باتجاه مكة». يقول أبي، ثم يرسل نظره إلى السماء.

لم يكن المرواني مبهم اللغة، فلغته واضحة جليّة، لكنه حين يحدو.. يتقمّص لغة لا تنتمي إلى الأرض[1].

---

(١) يظهر في هذه اللغة الحسّ الصوفي والاستناد إلى الوجدان في التلقّي، وهي ظاهرة تعزّز افتراض أنّ الساردة إمّا عابدة صوفية، وإما أديبةٌ ذات اتجاه صوفي تستند إلى لغة الإيحاء والفهم الباطني للأشياء، كما يتضح أيضًا الاهتمام بالصوت الذي يغلب على الصوفية في هذا الأمر.(مرعي).

[اللوح الثالث]

بعد عامين من اللقاء الأوّل بين أبي التاجر سليمان باشا، وسيّد القافلة المرواني، تكدّست الحكايات في ذاكرتي عن هذا الفارس البدوي. شعرت أنّي معنيّة به مثل أبي وأكثر. حين نقطع الطريق في أية رحلة بين تركيا والحجاز لا أحسب مسافة الطريق بعدد ما نقف، وإنما بقدر ما يحكي أبي.

لست في حاجةٍ إلى التأكيد أنّ أية حكاية لا تتعلق بالمرواني تزيد الطريق امتدادًا أكثر، في حين أنّ كل حكاية بطلها المرواني، أو حتى أي حدث يتعلّق به، يصبح في شعوري بمثابة قفزة من هضبة إلى هضبة، ومن حقف إلى حقف. كنت لا أرصد من الطريق سوى هذه الاستراحات التي تفصل بين كل مرحلة ومرحلة، فقد كان أبي كثيرًا ما يمنحنى وقتًا قبيل الخلود إلى النوم نتابع فيه، على ألسنة النار، ملامح هذا الفارس، من الندبة التي تحت عينه اليمنى حتى ابتسامته النادرة التي تطفئ وهج عينيه.

لم يكن أبي يتحدّث عن ملامحه كثيرًا، لكنه كان في معرض نقل صورته وهو يقصّ بعض ما يمرّ به من أحداث الصحراء، ينقل تفاصيل تكوّنت منها كامل ملامحه في مخيلتي،و قد أتيحت لي رؤيته ثلاث

مرات على عجل، وفي كل مرة كنت أختلس النظر إليه اختلاسًا حتى اكتملت صورته في الذاكرة.

حين كبر هذا الرجل في ذاكرتي كنت قد جاوزت السادسة والعشرين من العمر. كنت وقتها أفكّر بالذهاب وحيدة خارج المعسكر على أمل أن ألتقي به صدفة في إحدى خلوات المساء.

تساءلت في حيرة بيني وبين نفسي: هل كان أبي محبًّا لهذا الرجل إلى حدّ يرحّب فيه بمصاهرته؟. ثم ما لبثْ بعد ذلك أن أعادت عليّ الحيرة سؤالا آخر في صيغة احتجاج: كيف لامرأةٍ من باشات الأتراك أن تنبت في خيمة عربيّة؟

نعم قد تنبت الشجرة ذات الأصول الغريبة في تربة جديدة حين تألف المكان عبر سلسلة طويلة من الجذور. هذا ما قد يقنع أبي حين يصل جدلنا إلى جدّتي السورية القابعة في أقصى رحم الأسرة.جدّتي السورية نزحت قديمًا مع أسرتها إلى تركيا وفي تركيا تشجّرت الأسرة وتشابكت أغصانها إلى أن امتد جذع أبي مرة أخرى بأغصان جديدة كنت إحدى ثمارها.

في إحدى الرحلات أخبرني أبي أنّه رأى حلما غريبا. شعرت أنه يستشرف زمني بعد موته[١]. قال إنّه رآني أومضُ من وراء جبل عظيم

(١) التعبير بالاستشراف تعبيرٌ حديثٌ يورد إشكالًا على هذا المخطوط، غير أنّ النظر إلى بيئة الساردة واحتمالية أن تكون من أدباء القرن السابع عشر الميلادي في تركيا يرفع هذا الإشكال، كما يضع هذا المخطوط ضمن أدب الرحلات الشائع في ذلك الزمن. (مرعي).

كنجمة تلوح في الأفق البعيد، وقبل أن يستيقظ بدت له ملامحي غائمة بين الحزن والفرح.

مات أبي، بعد حلمه هذا، بعام واحد. خلال هذا العام قضى أبي عمره الأخير في الحجاز، وقد تعمّقت علاقته أكثر بالبدو الذين تناسلوا من علاقته بالمرواني، حيث وصف له أحد رفاق المرواني علاج الكيّ للانتفاخ المفاجئ الذي نبت في معدته، فما لبث أن قضى نحبه رغم ما بذله المرواني من جهد في تطبيبه عقب كيّه ثلاث كيّات في خاصرته.

فاضت روح أبي إلى بارئها في شهر المحرم، عقب أداء الحجّ، فكسب شرف الدفن في مكة، في ربوةٍ بجوار جبل الحجون[1]

(١) اسم جبل في مكة قريب من الحرم، وبه سمّى اليوم ما يطلق عليه ريع الحجون، تحته مقبرة المعلاة التي تقع في بداية طريق الحجون، ويبدو أنّ الساردة تتحدث عن المقبرة القديمة التي اتسعت اليوم وتحمل اسم مقبرة المعلاة،المذكورة آنفا. (مرعي)

[اللوح الرابع]

ودّعتُ قريتنا في تركيا، بمزارعها وأزقّتها المتعرّجة بين البيوت.

وقفت طويلاً عند شجرة التوت العجوز التي غرسها أبي، فلم تعد تثمر إلا الظل وبعض ذكريات طفولتي.

كنتُ أقضي نصف النهار تحتها بصحبة أمي وهي تقوم بجمع الثمار وسقي الزرع وتشذيب الأغصان الخارج عن فضائها المسوّر. ألتقط ما يتساقط من الفائض وأصنع به أعشاشًا لطيور المزرعة. كانت أمي توصيني بالمزرعة قبل أن تموت، وكنت وقتذاك طفلة لا أعي معنى الوصية، غير أني كنت أرى الزائرين ينظرون إليها بوجوه ممتقعة اللون وهي تحتضر. أدركت بعد ذلك أنها ملامح توديع الموشك على الموت. ماتت أمي في سن مبكّرة، وكنت أنا أيضًا كذلك لما أنضج لتلقّي صدمات الحياة بعد.

شاهدني أبي ذات يوم أتسلّق شجرة التوت لأضع العشّ بين أغصانها، فعاتبني، وطلب مني أن أدع للطيور حريّة اختيار المكان وبناء العش. أذكر أنه قال لي: «الطيور لا تأمن في أعشاش مصنوعة بغير مناقيرها».

تذكّرت هذه العبارة حين استقرّ جهاز عرسي في بيت المرواني، في قرية جرداء لا ينبت فيها سوى نبات الصبّار وشجيرات يسمّونها سمرات القرية[1].

ما سوى ذلك لا شيء يظهر سوى سواد الحرّات وصفرة الرمل الذي ينتهز فرصة امتداده في غفلة من حجارة بركانية لا تظهر منها سوى رؤوسها المدبّبة.

مضى شهران على زواجنا، وعلى غيابي عن قريتنا في تركيا. كانا بين فرح وترح، نشاط وملل، تارةً أحلّق في سماء علويّة أجول فيها بين حكايات المرواني واهتمامه الذي يغمرني إلى درجة أن أكون طفلة تنام في أحضانه وتفرّ إليه من سباع الحزن المفترسة، وتارةً تضيق عليّ كلّ الأمكنة فلا أجد ملاذًا سوى الحزن الذي أفرّ منه إليه ؛فلا أستطيع الفكاك من بين أنيابه.

حين ألفت المكان الجديد، بعد حول كامل، بدأت أرى القرية بوضوح أكثر.

بدت لي أرضها الجرداء ناعمة الملمس، كأنما تتهيّأ لخصوبة جديدة، تشتاق إلى ماء النبع والمطر معًا.

---

(١) تعتبر هذه العبارة من أقوى الأدلة في المخطوط على الأصل الشفهي الذي تتداوله القرية حول علاقة مرعي الجدّ الأوّل بشمس التركية صاحبة البئر المشهورة في القرية، لكن هذا الدليل لا يصرّح بأنّ المقصود مرعي المعنيّ في الرواية الشفهية وإن كان الاحتمال كبيرًا استنادًا إلى أحداث المخطوط. (مرعي).

قال لي المرواني: «أرضنا خصبة للزراعة، لكن الأهالي كسالى، والماء في أعماق الأرض».

عزمت على أن أحفر عينًا صدقةً عن أبي ورغبة في أن أمدّ هذه القرية بأسباب الحياة. قلت للمرواني:

«أيّ ناحيةٍ في القرية أقرب إلى النبع؟».

ردّ، باقتضاب، وبغير فضول:

«الناحية الشمالية، بعيدًا عن الحرّات»[1].

كنت قدّرتُ أنّ سبب الجفاف في هذه القرية يعود إلى هذه الحجارة البركانية، فالنار تمتصّ الماء من أحشاء الأرض، فتنبت هذه الحجارة السوداء بدلاً من المسطحات الخضراء.

فاتني أنّ الأرض البركانية غالبًا ما تحاذي منابع الماء من الجهة الأخرى، وهذا ما أدركته أخيرًا حين عزمت على حفر العين التي ظلت محل عناية القرية.

قال لي المرواني: «لن تنسى هذه القرية أنّك سيدة الماء الذي أعاد إليها الحياة من جديد».

حين تدفّق الماء بغزارة، بعد حفر دام خمسة أيام تقريبًا، أقام الناس في جوار الماء، بين رعاة ومزارعين، فتشجّرت هذه القرية، وكادت

(١) تقع عين القرية في الجهة الشمالية أيضًا، وهذا دليلٌ أقوى من سابقه. (مرعي).

تعيد ملامح قريتنا في تركيا لولا المناخ الذي يكتسح المزارع بالذبول فور انتهاء الموسم، فيجعلها أقلّ نضارة وثمرًا.

لم يكن يصمد أمام الصيف الحارق سوى النخيل، هذا الشجر البدوي الأصيل، الذي لا يشبهه سوى المرواني في عطائه وشموخه.

كان البدو يفدون إلى القرية، ينيخون ركابهم عند العين، إلى أن تعارفوا فيما بينهم على الاجتماع عند ماء العين، فهي العين الوحيدة في هذه الجهة التي تحتفظ بماء المطر لزمنٍ أطول، بخلاف العيون المجاورة، فهي برغم كثرة ينابيعها إلا أنّها قليلة العطاء، وغالبًا ما تشحُّ بالماء.

[اللوح الخامس]

بعد ثلاثة أعوام من زواجنا قرر المرواني السفر باتجاه الشمال مع رفاق له بحثًا عن علاج يزيل الحاجز الذي يقف حائلاً بينه وبين أبنائه القابعين وراء الغيب[١]. قلت له: «قد أكون الأرض غير المناسبة لحرثك»، فأجاب بنبل الفارس البدوي: «وقد يكون الخلل من الفلاح!».

عاد بعد السفر بحزمة أعشاب لم تصل إلى ما يريد. عند ذلك قرّر أن يقترن بزوجة أخرى، يبحث من خلالها عن ذرّيته، وقد فعل بعد أن اطمأنّ إلى أنّي سأبقى زوجته التي لا يربطه بها سوى الحبّ. قال حين رآني مكتئبة أجترّ حزنًا قديمًا:

«لا أريد أن يشغلك عنّي حتى أبنائي.. أنت بالنسبة إلي الصاحبة التي لا أعدل بها امرأة أخرى».

بعد زواجه لم يلبث أن أنجب ولدًا، كان ملء سمعه وبصره، وكأنّه

---

(١) دليلٌ ثالث يعزّز الرواية الشفهية، بيد أن الرحلة باتجاه الشمال قد تشير إلى احتمال أن تكون للمرواني علاقة بقبيلة جهينة التي رحل بعض بطونها إلى أقصى الشمال في جوار بلي وبني عطية. (مرعي).

أنجبه ليمتدّ به في الحياة، إذ غادر زوجته الثانية بعد عامين فقط، ثم غادر بعد عامٍ آخر تاركًا كلّ شيء خلفه.

لم أعد أعرف شيئًا عن ابنه الذي عاش وحيدًا عند أخواله[1].

بقيت في هذه القرية أقطع سنوات العمر ببطء حتى أوشكت على الخمسين. عدتُ بعدها إلى قريتي الأولى تاركةً عين الماء، مع بيت متواضع بلا حياة سوى ما تبعثه الذاكرة من أحداث ماضية.

حين وصلت إلى قريتي وجدت شجرة التوت العجوز قد هرمت ولم يبق منها سوى جذع منخور في وسط مزرعة بلا ظلال، فليس فيها سوى بعض الأخاديد الجافّة، والأعشاب الصفراء التي أصبحت حصيدًا كأن لم تغن بالأمس، فعزمتُ على أن أعيد الحياة إلى مزرعتي، كي لا أضيع بين القريتين.

طويتُ أيامي التي قضيتها في الحجاز بصحبة فارس بدويّ لم يغادر الحياة إلا بعد أن اطمأنّ إلى أنّه ترك من يكمل ركضه في مجاهل الصحراء.

وقد تعلّمت من البدو تجارب أضفتها إلى ما تعلمته من أبي، لكني، رغم كل هذه التجارب الثريّة، لم أفعل شيئًا ذا بال أفضل من حفر العين الجارية على قارعة طريق القوافل التي تقصد بيت الله الحرام.

كانت هذه العين هي ابنتي الوحيدة التي أنجبتها لتمتدّ بعد موتي،

---

(١) هنا أيضًا إشارةٌ إلى مرعي، الجدّ الأول، فقد كان هو الآخر وحيد والديه، وكانت ولادته بعد ترقّب. (مرعي).

فصدقت فيّ نبوءة أبي الذي كان يلقّبني بزبيدة،حين عرف رغبتي في سقيا الحجيج أثناء موسم الحج، وكان يناديني مداعبًا ومحفّزًا بساقية الماء.

كان لقب زبيدة لقبًا قريبًا من نفسي،فقد كنت أقرأ عن زبيدة زوج هارون الرشيد، فأورثتني سيرتها رغبة في أن أتقمّص شخصيتها، إلى الحد الذي كنت أحلم فيه بزوج في مقام هارون الرشيد من أجل أن أعيد تاريخ زبيدة، فكان المرواني خير حلم نبت على طريقي في الصحراء[١].

(١) يكاد يتطابق هذا اللوح مع رواية القرية الشفهيّة في بناء أحداثه وتفاصيله عدا أشياء يسيرة لا تُذكَر. (مرعي).

[اللوح السادس]

وفد إلى القرية شابٌّ بهيّ الطلعة، يميل إلى السمرة كألوان العرب عادةً، فارع الطول، وله لمّة تظهر من تحت عمامته المثبّتة بعقال أسود سميك[1].

جاء إلى القرية بصحبة ثلاثة من رفاقه. كان هو المتحدّث بينهم، حين سأل:

«من صاحب هذه المزرعة؟»[2].

قلت له:

«هذه المزرعة للعابرين، فلم يعد لها صاحب، لأنّ صاحبها أوقفها منذ دهر، وهي لا تزال تطرح ثمارها، وفي حاجة إلى العناية كي لا يتوقّف الأجر».

ردّ، بعد أن نظر إليَّ نظرة مشوبة بالتوجّس والحذر:

«من أنت؟ هل تتوقّف علاقتك بالمزرعة على العبور أيضًا؟».

---

(١) لم ترد هذه الحادثة في رواية القرية، وهي من إضافات المخطوط.(مرعي).

(٢) لم تعد المزرعة موجودة الآن، فليس سوى بعض الآثار، من بينها البئر والعريش. (مرعي).

وأضاف سؤالاً آخر، بعد أن نظر إلى العريش المبنيّ من سعف النخل:

«ولمن هذا العريش؟».

قبل أن أجيب، كان أحد رفاقه قد سبقني إلى القول:

«لعلّها عابدة، منقطعة لخدمة هذه المزرعة».

قلت، وقد شعرت أثناء الحديث أنّي أعيد حوارًا سابقًا عالقًا في ذاكرتي:

«لا، أنا أرملة صاحب هذه المزرعة، أتعهدها كل عام حين قدوم الحجاج كي لا ينقطع خيرها».

ثم أشرت إلى العين، وأكملت حديثي:

«وكذلك الأمر بالنسبة إلى هذه العين التي لا يزال ماؤها يستقي منه الحجاج العابرون».

نظر إليَّ في دهشة بالغة، وهو يتفرّس ملامح وجهي، متسائلاً:

«هل أنت زوجة المرواني، ابنة التاجر التركي، سليمان باشا؟»[١].

وأضاف، وهو ينظر إلى رفاقه:

«والدي تزوج ابنة تاجر تركي يفد إلى مكة كل عام، ولأنّه لم ينجب منها ولدًا، تركها وغادر بحثًا عن عقبه، لكنه كما سمعت مات قبل أن يطلّقها».

حين قال ما قال، شعرت أنّ الزمن استدار بي إلى يوم لقاء المرواني

---

(١) لم يرد اسم التاجر التركي في الرواية الشفهية. (مرعي).

الأول، فسقطت من عيني دمعة كانت أبلغ من أيّ قول آخر، إذ ليس بوسعي في تلك اللحظة أن أعبرَ إلى عالم المرواني بغير الدمع. لاحظ الشاب ذلك فتنحّى هو ورفاقه قليلاً، ثم عاد وحده يسألني عن تفاصيل حياة أبيه.

كان قدومي إلى مكة قبل الموعد سببًا في أن أدركت مجيئه، فقد ذكر لي أنّه منذ ثلاثة أعوام يأتي إلى هنا في هذا الموعد، يتفقّد المكان، ثم يعود إلى دياره، وأنّه لم يكن يعلم بما يحدث في القرية أثناء موسم الحجّ، لأنّه يعبرها سريعًا، كعادة البدو الذين نذروا حياتهم للتنقّل والرحيل.

[اللوح السابع]

منذ التقيتُ ابن المرواني وأنا أشعر أنَّ الزمن يعود القهقرى، كأنَّ السنوات تعيدني إلى الزمن الماضي كلما تقدّمت خطوةً إلى المستقبل.

صرتُ ألتقي ابن المرواني[1] في موعده المعتاد قبل أن يحين موسم الحج. يفد إلى القرية برفاقه أو بدونهم. يقصّ عليّ أخباره وأخبار قبيلته في ديارهم المتجهة شمالاً.

صار لقائي إياه لقاء الأم ولدها الغائب، ومع ذلك أشعر أنّي ألتقي المرواني في ملامحه وطريقة حديثه، بل حتى في مشيته حين يقبل أو يدبر.

الشيء الذي أراه في الابن ولم أكن رأيته في أبيه من قبل، هذا التوجّس من كل غريب لا يألفه. صحيح أنّ البدو يتفرّسون في ملامح الغريب، لكنهم يفعلون ذلك بقصد معرفة أصوله ودياره، وهذا ما كان يفعله المرواني مع العابرين.

---

(١) لم يرد ذكر اسم ابن مرعي في المخطوط، واختلف رواة القرية في اسمه، بين عقاب، وشهاب، وبعضهم يرى أن عقاب وشهاب معًا اسمان لجدّين متعاقبين في سلالة النسب. (مرعي).

أذكر أنّه فعل ذلك مع أبي أيضًا في أوّل لقاء. الفرق أنّ ابن المرواني لا يأنس بالغرباء إطلاقًا، لا يمنحهم الدفء الكامل، حتى حين يكرمهم فهو يكرمهم لأنّه بدويّ يفعل ذلك وفق أصول تربية اجتماعية[1]. أمّا أبوه فلم يكن كرمه بدافع اجتماعي بل لأنّ كرمه كان سجيّة، وأنسه بالرفاق والغرباء طبيعة تسكن في أعماقه، وحين يتعرّف إلى الآخرين يتعرّف إليهم لتقوية العلاقات وأسباب المودّة.

قلت لابن المرواني:

«أنت تشبه أباك في أشياء ولا تشبهه في أشياء أخرى، كان الأولى بك أن تتشبّث بها أكثر».

حين أدرك ما أعنيه قال مبررًا:

«لم أدرك أبي.. دخلت العالم من باب وخرج هو من باب آخر. عام واحد لم يكن كافيًا إلا لاقتفاء أثر ملامحه».

عرفت أن ابن المرواني شعر من حديثي بلوم لأخواله النائين عن الطرق العابرة، وكنت أعني ذلك فعلًا، فهم، فيما بدا لي، المسؤولون عن طريقته في التوجّس والحذر.

لهذا السبب كان حريصًا على أن يلتقيني كل عام لأقصّ عليه تاريخ أبيه المخبوء، وقد رأيت أن يتحوّل هذا القصّ إلى سيرة مكتوبة منذ التقيت أباه إلى أن التقيته، ثم إلى لحظة كتابة هذا المخطوط الذي

---

(١) يمثّل هذا الوعي تقدّماً في الملاحظة ضمن الصفات الاجتماعية، وهو دليلٌ على أنّ الساردة ذات إلمام بما يتصل بعلم الاجتماع وعلم النفس. (مرعي).

أدوّنه في عمر متأخّر عن إملاء ذاكرةٍ ليست بأحسن حالاً من شجرة التوت العجوز، تلك التي لم يبق منها سوى جذعٍ متآكل في مزرعة أبي الخاوية على عروشها.

في تلك الليلة ودعتُ ابن المرواني[1]، وأخبرته أنّي لن أعود إلى القرية ثانية، بعد أن عهدت إليه بالعين والمزرعة يرعاهما كما يرعى نفائس أمواله.

وحين ودّعته، قلت ما قاله المرواني حين ودّعني في يوم رحيله إلى الشمال:

«ستظلّ هذه القرية محط أنظار العابرين ما دامت العين تفيض بالماء، وما دامت المزرعة تسخو بالظل والثمر، فإيّاكم أن يجفّ النبع أو تظمأ منابت النخيل».

(١) يبدو لي أنّ إغفال الساردة اسم ابن المرواني ذو علاقة بشعورها تجاه المرواني نفسه باعتباره امتدادًا له. (مرعي).

[اللوح الثامن]

في السنة الأخيرة التي جعلتها حجّة الوداع[١]،قررت أن أشرع في كتابة المخطوط كي أضعه في أعماق العين ملفوفًا في ورق جلديّ يحفظه من التلف.

فرغت منه في مطلع العام الهجريّ من السنة الجديدة ١١٨٩، وقد كلّفت أحد الرجال الماهرين في الغوص أن ينزل إلى أعماق البئر ليدسّ المخطوط في زاوية قصيّة لا يصل إليها الماء.

بهذه الطريقة أستطيع الحفاظ على ذاكرة القرية إلى أن يحين موعد اكتشاف المخطوط حين تنضب ماء العين.

حين يحتاج أهالي القرية إلى سبر البئر أو تجديد حفرها سيعثرون على المخطوط ويعلمون أنّ هذه العين هي سرّ حياة القرية، وأنها تحتفظ بالماء والتاريخ معًا.

أذكر أنّ المرواني، في إحدى ليالي الشتاء الباردة، أوقد النار وطلب مني أن أقرأ له رسالة وصلته من أحد أعيان القبائل العربية في

(١) تقمّصٌ صوفي في التعبير بما له علاقة بالسياق النبوي، وهي تشير إلى طريقة التفكير الصوفي في استلهام الشعائر الدينية.(مرعي).

الشمال، وقد علّق على قراءتي بما يفيد أنّ حياة البدو تذهب مع الرياح، وتفنى كما يفنى الحطب بهذه النار فيستحيل إلى رماد، ثم نظر إليَّ وقال:

«باستطاعتك أن تحفظي كلّ ما تسمعين في مثل هذه الرسائل، القصائد والحكايات وسوالف البدو، حتى لا تذهب مع الزمن كما تذهب كل الأشياء في الصحراء».

كان يعلم أني مولعة بكل ما أسمعه من أحداث وحكايات، وقد واصل هو على طريقة أبي يخبرني بكل حدث عابر يرى أنّه يستحق الرواية.

والحقيقة أنّي رغم كل ما أختزن في ذاكرتي لم أجد شيئًا يستحقّ التدوين أكثر من أن أروي سيرته وأخباره، فقد كانت سيرته سيرة فارس عربيّ همّشه التاريخ وغاب عن ذاكرة الأحفاد، وقد عزمتُ في.........
.......................................][1]

---

(١) هنا مكان محو للماء، حيث لم يكتمل النصّ بالإضافة إلى لوح كامل قد طُمست كتابته، ما يدلّ على بتر يحتاج إلى متابعة في مخطوطات أُخَر؛ فالسيرة لم تكتمل، والذي أرجّحه أنها سيرة مرعي كما رواها هو للساردة في بيت الزوجية، وعلى هذه السيرة تتوقّف العلاقة، بشكل دقيق، بين المخطوط وذاكرة القرية. (مرعي)

الفصل الخامس

زمن التخمين

ما بعد المخطوط

-١-

حين فرغ مرعي من قراءة المخطوط،أعاد نسخه على ورق صقيل بخطٍّ طباعي، وبعد أن حبّر بعض كلماته المطموسة استنادًا إلى السياق بدا له غير عسير، بل هو واضح إلى درجة أنّه شعر بقرب زمنه، فالنَّفَسُ الأسلوبي ليس بعيدًا عن نَفَس العصر، وهو لا يشبه أساليب الكتّاب في أواخر العهد المملوكي وأوائل العهد العثماني، وقد سجّل هذه الملاحظة في هامش المخطوط، وأضاف هوامش أخرى تتعلّق ببناء الحكاية وطريقة السرد السيري فيها، وهوامش أخرى، تتعلق بمدى مطابقة ما كُتِبَ للسياق الزمني آنذاك، بيد أنّ أهم ما لفته في الحكاية، فجعله قيد دراسته للمخطوط، هو، كما ذكر، في مقدمة الدراسة، ما يتعلّق بصحّة هذا المخطوط تاريخياً ونسبته إلى تلك الفترة على وجه الدقّة.

التقى د.جهاد الزاكي في مكتبه للتباحث بشأن المخطوط وما ورد فيه.

عرض مرعي ما كتبه حول المخطوط.كان أكثره يدور حول

مقاربة بين الحكاية الشفهية التي يتداولها أهل القرية والحكاية في صياغتها المكتوبة.

انقطاع الحكاية في صيغتها المكتوبة قبل تمام الورق الجلدي كان موضع أسف أبداه مرعي لأستاذه، حيث يتوقّع أنّ ثمة لوحًا تاسعًا وربما أكثر قد يكون هو الأهمّ في معرفة جذور جدّه، إن كان هو بالفعل.

غير أنّ الدكتور جهاد الزاكي أبدى سعادته البالغة بهذا البتر، أو ما بدا للجميع أنّه محو الماء، فقد ظهرت آثار بقع الماء في الأوراق الأخيرة التي طمست فيها الكتابة وهي، كما يتوقع مرعي، بقية الحكاية وأساسها، لأنّ الساردة وقفت عند وعدها بالبدء بالكشف عن سيرة المرواني مع تفاصيل أكثر.

كان مرعي يتوقّع أن يرد في ثنايا التفاصيل كلّ ما يتعلق بنسبة القرية إلى جدّه وعلاقته بالساردة.

قدّر في نفسه أنّها شمس التركية استنادًا إلى الحكاية الشفهية وإلى ما ورد في المخطوط ؛فالساردة هي ابنة التاجر التركي وزوجة المرواني التي لم تنجب منه ولدًا، والقرية التي تتحدث عنها، بكل تأكيد، هي قرية عين شمس، إذ يكفي لصحّة هذا الافتراض وجود المخطوط في البئر المهجورة التي نضب ماؤها أخيرًا، قبل خمسين سنة تقريبًا، في تلك الفترة التي شهدت فيها القرية ظمأ شديدًا أعاد إليها الجدب، قبل اكتشاف الآبار العديدة التي تفجّرت ينابيعها لاحقًا.

تذكّر مرعي حرص الساردة على عين الماء فهجس في نفسه بخيبة

أمل كبيرة كانت ستتعرض لها فيما لو قُدّر لها أن تنبعث ما بين السطور لترى ما حلّ بالعين التي صارت مأوى للأفاعي السامّة ؛إذ لولا الماء الذي يجلبه أهالي القرية من الآبار البعيدة لماتت كل مزارع القرية التي بقي أقلّها يحتفظ بملامح الزمان الماضي في بعض نخلات صامدات يسخين بالرطب كل صيف.

من ضمن ما قاله الدكتور جهاد الزاكي لمرعي تلك الملحوظة التي وضعها في اعتباره لحظة تبييض مسوّدة الدراسة:

«لا يمكن الجزم القاطع بأنّ الساردة هي شمس التي وردت في ذاكرة القرية. صحيح أنّ هناك تشابهاً في البناء الحكائي، وفي كثير من الأحداث، وفي أصل الحكاية أيضاً، لكن عدم ورود اسم الساردة يظلّ عقبة في طريق الجزم، أقلّه من وجهة نظر البحث العلمي».

يضيف الدكتور جهاد أيضًا «إنّ التاريخ يتلبّس الأشخاص في تكرار عجيب للأحداث المتشابهة، ولهذا لا يبعد أن تكون هذه الحكاية من ضمن حكايات تاريخيّة عديدة بينها تشابه، بل حتى مجرّد العثور على اسم الساردة لا يكفي ما لم تصرّح في حديثها بتفاصيل علاقتها بالمرواني وتذهب إلى أبعد من ذلك فتذكر اسمها واسمه وما آلت إليه حالة كلّ منهما في امتداد الزمن حتى نصل إلى الخيط الذي يربط المرواني بالأسرة، أو في أقل الأحوال، يربط ابنه بأسرتكم من خلال ما وقع من أحداث لاحقًا.

وكل هذا قد يكون وقع وتمّ تسجيله في الورقات المفقودة التي

محاها الماء، وهي مفارقة عجيبة حين يتبيّن التطابق بين القرية في ذاكرة أهلها والقرية في ذاكرة المخطوط، فحوى هذه المفارقة تكمن في سرّ الماء الذي كتب القرية ومحاها في الوقت نفسه».

بدا تعليق الدكتور جهاد الزاكي ذا ملمح أسطوري لا يخلو من شعريّة واقعية، وهو ما جعل مرعي يشعر أنّه بإزاء قراءة نصّ شعري لا مخطوط تاريخيّ، بيد أنّ ذلك زاده استمتاعًا بالدراسة البحثيّة، فهو الآن يقف على عتبة النصّ التاريخي الناقص في مقابل حكاية شفهيّة كاملة في ذاكرة القرية، وإن بدت بعض الأحداث مختلفة في صياغتها بسبب الرواة الذين يبدّلون ويغيّرون، ما جعله يستند إلى الرواية الشفهيّة التي كان يرويها أبوه لأمه، وهي الرواية التي يزعم مرعي أنّها الأقرب للتماسك بسبب تسلسل رواتها عبر ثلاثة أجداد من أسرته، إضافةً إلى أنّها الأقرب إلى حكاية المخطوط في كثير من أحداثها وتسلسل بنائها.

- ٢ -

غادرت شمس كندا تاركةً خلفها مستقبلها الطبي، صارفةً نظرها عن مواصلة الدراسة بحجّة أن الطفولة لم تعد في حاجة إلى الأطباء، ليس لأنّ الصحة هي الوضع الدائم والسائد، بل لأنّ الموت هو الخيار الوحيد في الوقت الراهن.

ذلك ما أشارت إليه في إحدى رسائلها التي بعثتها إلى ربيع بعد غيابها، وانقطاع أخبارها.

كانت أوّل رسالة وصلته عن طريق النادل. حينذاك شعر ربيع أنّ شمس غابت قَدَرًا ليفرغ لدراسته ومن أجل مستقبله مع سمر، وبعد فترة انقطاع عن المقهى عاد إليه ليتذكّر بعض لياليه الحالمة التي كادت تتّسع لولا غياب شمس.

حين فاجأه النادل بالمظروف الصغير قدّر أنه إحدى رسائل مرعي التي تصله بأخبار المخطوط وحكايته الجديدة، لكنه بمجرّد أن لمح الطابع البريدي عرف أنّه من تركيا، فهجس في نفسه بشمس، برغم استبعاده أن تكون الرسالة من طرفها، خصوصًا أن آليّة الرسائل التقليدية لم تكن تصله إلا في حالة واحدة هي حالة مرعي الذي يتعمّد

إبقاء هذا النوع بينهما من أجل البقاء في مخيلة العالم الأسبق، عالم الورق والحبر، وقد تعاهدا معًا أن يتم بينهما تواصل من هذا النوع خارج أطر الرسائل الإلكترونية بين فترة وأخرى.

هل كانت شمس ترغب في دخول هذه اللعبة بعد أن استحسنتها حين أخبرها ربيع بها؟ أم أنها تريد الإيحاء لربيع بعلاقتهما القديمة في المقهى وأرادت للرسالة أن تكون طللاً ورقيًا يقفان عليه معًا كما يقف الشاعر العربي على أطلال محبوبته؟.

لم تذكر في رسالتها شيئًا يتعلّق بهذا الأمر، غير أن ربيع لم يستبعد ذلك استنادًا إلى شخصيتها وطريقتها الحميمة في صناعة الدهشة كلما شعرت أن الرتابة تسللت إليهما.

كانت تقول لربيع: «تبدو اللحظات المفاجئة هي روح الحياة، ولولاها لقتلتنا هذه الرتابة المكرورة».

من رسالتها الأولى عرف ربيع أنّها تركت الكلية الطبية بقرار حاسم لا رجعة عنه، وأنه لم يكن قرارًا اضطراريًا، بقدر ما هو اقتناع أملاه زمن الموت، أو كما سمّته زمن محو الأشياء الجميلة.

وقف ربيع عند فكرة المحو، محو الأشياء، فذهل من تكرار الفكرة وحضورها بكثافة في الذهن والواقع، فكلّ الأشياء من حوله تشير إلى هذا المحو.

قبل شهر تقريبًا وصلته رسالة من مرعي تتعلّق بالمخطوط، ذكر فيها محو الماء ما تبقّى من المخطوط. تساءل هل قدر الأشياء الجميلة

المحو؟ الذي أعرفه، قال، في رسالته الأولى لمرعي، «أنّنا نمحو الأخطاء، نمحو الكتابة الرديئة، نمحو اللئام من حياتنا، نمحو كل ما لا نرغب فيه، لنكتب ما يعجبنا ونحبّه فقط..

يبدو أنّ قدرنا هو المحو، لولا المحو ربما لم نجد رغبة في البقاء، فالموت، مثلاً، هو المحو الأكبر، لكنه، في حقيقته، محو للعالم في الطريق إلى البحث عن عالم أجمل، هو عالم الخلود الأبدي الذي تلتقي فيه الأشياء الجميلة في صيغتها النهائية، تمامًا كما يحدث للنصّ الخالد في ذاكرة الحياة، إنّه يبقى زمنًا أطول لأنّه سكن صيغته النهائية.

عزيزي مرعي..

ثق أنّه لا قيمة لمخطوطك لولا هذا المحو الذي ابتكره لك الماء ليكون مخطوطًا نفيسًا، يحتفظ بأسراره، ويحتفظ بسرّ شمس التي تركت لك إشعاعها بين السطور واحتجبت وراء الماء.

احتجبت من أجل أن تكون أكثر من امرأة في مخيّلتك العلمية، ومن أجل أن يبقى طرف الحبل المتعلّق بجدنا الأكبر في أيدينا، فلو عثرنا على المخطوط كاملاً لانتهى تاريخ القرية مع آخر سطر فيه، وربما انتهت معه أسطورة مرعي الأكبر، وأسطورة العين الملأى بالأسرار».

حين قرأ مرعي هذا المقطع من رسالة ربيع لم يتمالك نفسه عن الفرح والدهشة معًا. عاد إلى المخطوط يتأمّله، يلمسه بيديه ليتيقن أنّه واقع ملموس خشية أن ينتبه فينكسر إطار الحلم المحيط به.

«لا، ليس هذا حلمًا». قال في نفسه، وأردف:

«لو كان حلمًا لما شعرت بهذا التماسّ الحقيقي بين أصابعي وورق المخطوط، أو ربما استيقظت فور لمسه عند المرة الأولى.

نعم، لقد مكثت زمنًا أقرأ سطوره وأعالج كلماته التي تظهر وتغيب بفعل الماء.

زمنًا أتأرجح بين المحو والكتابة، كأنما أنا بين الماء واليابسة، حتى وصلت أخيرًا إلى آخر حدود اليابسة عند أوّل حدود الماء. الماء الذي غابت شمس وراءه دون أن تترك لها أثرًا سوى هذه السطور».

عاد إلى رسالة ربيع مرة ثانية. بدا له في هذه الرسالة يتحدث بروح جديدة، هي روح الشاعر الفيلسوف الذي خلع رداء الطبيب، وصار يوغل في ذاكرة الأشياء:

«هذا المحو لم يكن قدرك مع شمس التركية فحسب، بل قدري – أنا أيضًا – مع شمس الدمشقية التي تركت الطب وسافرت إلى بلدها المحترق لتموت هناك حيث نشأت.

فإن كانت شمسك انطفأت بالماء، فإنّ شمسي ازدادت احتراقًا واختارت أن تفنى في وهجها المحرق، وسواء كان المحو بالماء أو بالنار، فهو في الأخير محو يأخذ شكل الغياب المورق بالأشياء.

عزيزي مرعي..

قَدَرُنا معًا أن نتحاذى في طرفين خلف شمسين مختلفتين، لكن مآلهما واحد. شمسك التي غابت وراء السرد المنقطع، الذي لم تسلمك سطوره إلا إلى فضاء أصفر أشبه بصحراء جزيرتنا، قد محاه

الماء كما يمحو البحر آثار العابرين على الساحل، وشمسي التي أسرد لك الآن بعض حكايتها وقد غابت قبل أن ينقطع السرد.

سيكون لي معك موعد آخر في رسالة أخرى، حين أتلقّى إحدى رسائلك القادمة وكلي أمل أن تصل إلى السطور المخبوءة وراء حدود الماء».

طوى مرعي الرسالة وأعادها إلى المظروف. ألقاه جانبًا على المكتب ومدّ يده إلى المخطوط، وعلى الصفحة الأولى ألقى نظرة ساهمة لا يبدو أنها استقرّت على السطور بقدر ما عبرتها بمخيّلة تستدرج البصر إلى ما وراء الجلد الأصفر المتآكل من الأطراف.

سؤال عابر كأنما نبع كالماء من بين السطور:

ماذا لو أنّ هذا المخطوط ليس أكثر من رسالةٍ حديثة لأحد العشّاق العابرين قبل زمن قصير؟ ماذا لو أنّ شمس وربيع يلعبان معي لعبة المتاهة من داخل البئر؟ هذا أقرب إلى أن يكون أضغاث أحلام من أن يكون واقعًا في زيّ لعبةٍ سخيفةٍ كهذه!.

- ٣ -

عدد من الرسائل المتتابعة، الورقية والإلكترونية، كانت كفيلة بأن تنقل ربيع إلى حيث يستقرّ مرعي في قرية العين، قريبًا من بئرها المهجورة ومخطوطها الدارس إلا من حكايات شمس، أو بالأصح، الساردة التي يصرّ مرعي أنها شمس ويسعى جاهدًا لإثبات ذلك.

في المقابل انتقل مرعي، عبر رسائل الفقد التي وصلته من ربيع تِبَاعًا، من قرية العين إلى كندا، قريبًا من السكن الجامعي على ضفاف المقهى ذي الواجهة البرتقالية، حيث تستقرّ على الكرسي الخشبي أمامه طاولة صغيرة لا تتّسع لأكثر من شخصين متناظرين.

كانت مخيّلة مرعي ترسم المكان بحسب ما تمليه رسائل الفقد التي يكتبها ربيع وهو يسرد المكان في ثنايا حكاياته مع شمس، في حين كان ربيع لا يحتاج إلى أكثر من أن يعود إلى ذاكرته القابعة في أقصى جمجمته ليجول في قريته القديمة مضيفًا إليها الأحداث الجديدة والشخوص التي كبرت قليلاً واتّسعت أحلامها.

سمر هي الوحيدة التي حاول ربيع أن يسلّها من ذاكرته كما هي

في طفولتها ومطلع شبابها النضر لكنه لم يفلح، فرغبته المتأرجحة بينها وبين شمس تخلط بين الملامح وتعجن هذه بتلك.

لا يزال يناضل ضد هذه المخيلة بإزميل الماضي الذي ينحت الذاكرة من أجل إعادة صاحبته القديمة، أو التي ستكون صاحبته فور عودته من البعثة بالشهادة الطبية.

قال في نفسه، متعجّبًا: «يا إلهي.. كيف يعيش القلبُ حين ينشطر بين امرأتين؟!».

تذكّر على الفور أنّه ابن قبيلة تحتفظ في سيرة الأجداد بهذه الظاهرة، فكل جدّ من أجداد القرية كان يتوكّأ على امرأتين وإن كان يميل إلى واحدة دون أخرى. انحسرت هذه الظاهرة في الجيل التالي حتى اختفت مع جيل القرية الثالث، الجيل الذي يقف هو ومرعي في طليعته، مع جاسر وهليّل وبقية رفاق القرية الذين تشعّبت بهم الطرق وافترقت بهم الطموحات.

جاسر، مثلاً، لزم الأسفار والتنقّل بين شركات النقل يعبر الطرق السريعة وقد اتّسعت طموحاته في هذا الشأن فصار، فيما بعد، صاحب شركة للنقل والسفريّات، وأدرك أن الطرق العابرة تختزن كثيرًا من الرزق.

أما هليّل فاكتفى بهوايته في جسّ نبض مياه الآبار واقتصر على وظيفته المتواضعة وسط عدد كبير من موظفي شركة المياه، يرصد أرقام العدادات ويسجّل المواعيد لأصحاب الاشتراكات الجديدة.

الآخرون من الرفاق غابوا كغيرهم في زحمة البحث عن الوظائف التعليمية، وإن كانت القرية لم تبخل بذكورها وإناثها على هذا القطاع، وكان أوّل من طرق أبواب التعليم هن الفتيات حين بدأت سمر برسم ملامح الطريق لمن بعدها في أوّل تعيين كان في قرية المهد.

فكّر ربيع فيما يصنعه حين عودته وقد أسف على تورّطه في اطلاع مرعي على كل ما يخصّ علاقته بشمس. همس بينه وبين نفسه:

هل لا يزال الوعد الطفولي قائمًا؟ وهل أهالي القرية أنفسهم ما زالوا على اعتقادهم أنّ سمر لربيع استنادًا إلى ما بين الأسرتين من تواصل، وإلى ما بين مرعي وربيع من أخوّة تجاوزت الصداقة الطبيعية؟ بل استنادًا إلى ما شاع في القرية أنّ ربيع خطب سمر وسيكون زفافهما بعد العودة من البعثة الدراسية؟.

استجابة لهذا الشعور المحرج أراد أن يُمِرّ لمرعي، في إحدى رسائله، فكرة فحواها أن شمس الدمشقية لم تكن أكثر من مغامرة خطيرة خاضها بقصد اختبار مدى وفائه للعهد القديم بينهما.

بدت له هذه الفكرة في بداية الأمر ساذجة، فمرعي ليس صبيًّا ولا فتاة يمكن إقناعه بمثل هذا التأويل البعيد لعلاقة كادت تصرفه عن أخته أو صرفته لولا أنّ شمسه غابت فجأة، لكنه تذكّر أنّ كل هذه التفاصيل لم يكن ليعلمها مرعي إلا عن طريقه، وهذا مدخل مقنع لكل تأويل، فهو لم يجد حرجًا في هذه العلاقة فيما هو يسرد تفاصيل طبيبة تشاركه في فضاء العمل.

قرر حينذاك أن ينقل هذه الفكرة بلباقة أكثر، وأن يستدرج مرعي للحديث في هذا الموضوع، فمنذ أوّل رسالة أرسلها إليه في هذا الأمر إلى هذه اللحظة التي يكتب فيها هذه الرسائل لم يحدث أن قرأ في رسائل مرعي حرفًا واحدًا يتعلّق بالعهد القديم الذي كان بينهما.

على الجانب الآخر، لم يكن مرعي يشكّ في ربيع، بل كان يقرأ رسائله التي تصل أحيانًا إلى حدود التعلّق بشمس على أنّها علاقة عابرة في كليّة علمية سينكشف فيها لربيع مستقبله بوضوح أكثر، وسيدرك أنّ سمر قدره الأجمل، فكان يفسّر كل ما يكتبه عن شمس بدهشة البيئة الجديدة التي تشعّ فيها المرأة عند أوّل رؤية لها إلى أن يطفئها التكرار، وها هي شمس لا تنطفئ فحسب، وإنما تغيب بقدر لم يحسب حسابه، ولولا هذا الغياب ما كتب رسائل الفقد التي هي الأخرى ليست بعيدة عن شمس التركية الغائبة وراء السطور.

كان مرعي يشعر أنّ ربيع ظلُّه في العالم الآخر، وأنّ كل ما يحدث معه في عالم الورق يحدث مع ربيع في عالم الواقع، فبينهما قَدَرٌ مشترك تختلف أحداثه وشخوصه، بيد أنّ بنية التاريخ واحدة، وهذا جوهر ما درسه على يد أستاذه البروفسور، د. جهاد الزاكي.

كانت معرفة ربيع بمرعي وتأمّلاته في أحداث التاريخ وربطها بالواقع كفيلة بأن تجعله يطمئنّ إلى أنّ صديقه يقرأ رسائله بهذا الاعتبار، وأنّه يفهم ما يحدث له في كندا، خصوصًا بعد تطابق الأسماء بين امرأتين، في الماضي والحاضر، على أنّه جزء من مشروعه البحثي

الذي يتعلّق بتاريخ القرية وشمسها الغائبة، ولا يبعد أن يفيد من هذه العلاقة الموازية ولو من باب المقاربة البحثية.

غير أنّ ربيع نسي كلّ ما يعرف عن صديقه متأثّرًا بخيبة الأمل التي جعلته يبدو ضئيلاً أمام نفسه قياسًا بما وصل إليه مرعي مع شمسه التي تركت له أثرًا علميًّا لم يظفر هو بما يوازيه في الجهة الأخرى، بل على العكس، غابت شمس، وتزعزعت ثقته بميثاق الشرف الذي كان قد عقد عليه قلبه قبل السفر وها هو يحاول من خلال الرسائل ترميم هيكله أمام مرعي.

- ٤ -

كبرت قرية عين شمس فتغيّرت ملامحها ؛إذ تم تسوير المكان المحيط بالبئر، في حين تمدّدت المنطقة العمرانية من الجهات الأربع.

البيوت ارتفعت على شكل بنايات حديثة ذات طابقين وثلاثة، والأزقّة القديمة اختفت وراء البيوت، وبعضها ابتلعته ضمن خرائطها الحديثة، هذا فضلاً عن السوق التجارية الحديثة التي في الناحية الجنوبية من القرية، بالإضافة إلى الطريق المعبّد الذي اخترق القرية من داخلها ومدّ ألسنة شتى في شكل أغصان تفرّعت منه وانسربت من بين البيوت في هيئة شوارع أحالت القرية إلى مدينة صغيرة ذات طابع هندسيّ أشبه بمدن الأحلام في الروايات الرومنسيّة.

يعود الفضل في ذلك إلى مرعي الذي لم يغفل الجانب العمراني للقرية حين حرص على التعريف بها بعد أن قدّم دراسته التاريخية عن أهمية موقعها الجغرافي بالنسبة إلى طريق القوافل قديمًا وطريق الحجاج حديثًا عبر القطار، حيث أثبت من خلال الدراسة أنّ قرية عين شمس تصلح أن تكون مدينة سياحية صغيرة بمثابة محطة أخيرة للقطار الممتدّ بين مكة والمدينة.

حين فرغ مرعي من دراسة المخطوط بعد أن عجز عن الوصول إلى غايته الأولى من الدراسة قرر أن يستثمر نتائج المخطوط في ربط القرية بالتاريخ الحديث، وكان من أبرز النتائج التي توصّل إليها أن قرية عين شمس كانت مكان إقامة لكثير من كتّاب الرحلات الذين يفدون إلى مكة من الخارج. شمس، أو من اعتقدها كذلك، ربما كانت إحدى أديبات تركيا وقد كتبت عن رحلتها إلى مكة وكثير من الأحداث في الحقبة التاريخية التي شهدتها؛ فهذا افتراضٌ علميٌّ معقول.

إثر ذلك تم تشييد مركز القرية التاريخي الأثري تحت إشراف مرعي ومجموعة ممن انتخبهم للعمل في هذا المركز، استطاع من خلاله تطوير فكرة الدراسات البحثية فتحوّلت القرية إلى ملتقى لكثير من الباحثين الذين يرتادونها بغية الحصول على مصادر تاريخية تتعلّق بدراسة تاريخ الحجاز ومعالمه الأثرية القديمة.

كان من ضمن ما خرج به من المخطوط الذي نبع من العين في رحلته البحثية، الماتعة كما يصفها كلما أتيحت له فرصة الحديث عن مشروعه، أنّ المرأة التركية التي سكنت القرية وتداولها رواتها لم تنسجها ذاكرة الرواة من فراغ الحكايات المتخيّلة، فالأصل كامن في ملامح المخطوط الكبرى، لكن أحدًا لا يجزم أنّ المرأة التي كتبت المخطوط هي شمس التي تحملها القرية في ذاكرتها من خلال الاسم، إذ يبدو أن الحكايات المتخيّلة تتداخل مع الأصول التاريخية فتعيد إنتاج نفسها في ذاكرة الناس في روايات مختلفة، وهذه في ذاتها

نتيجة يمكن الاحتفاء بها في الجانب العلمي، ذلك أنّ أكثر القصص والحكايات والأخبار التاريخية، وملامح الأبطال الأسطوريين، هي نتاج أخلاط من الواقعي والمتخيّل، تتشكّل بطرائق مختلفة في ذاكرة الإنسان الذي يولّد الحكايات من أصول التاريخ، وهنا تكمن علاقة الإنسان بالتاريخ، وعلاقته بالمكان، وبالأبطال الذين يحتفي بسردهم في مخيّلته الأسطورية. لهذا الغرض أراد مرعي أن يتحوّل مشروعه البحثي إلى مركز ميداني، يتم من خلاله التطبيق على معالم القرية التي لما تصلها يد الباحثين بعد، خصوصًا تلك الآبار الموجودة بوفرة في المنطقة المفتوحة خارج القرية، وثمة آثار أخرى يجزم مرعي أنّها ليست أقلّ شأنًا من العين التي قُدّر لها أن تتصدّر الآثار بسبب ارتباطها بشمس، فعادةً ما يحتفي البدو بالأسماء وعلاقتها بالعابرين في القرون الماضية وهو ما جعلهم ينسجون كل حكاياتهم عن القرية من هذا الخيط الذي كان معقودًا على إصبع سؤال حائر:

ما علاقة اسم القرية ببئرها المهجورة برغم أنّه لا يحفل بها أحدٌ، حتى الحكومة نفسها؟.

لا شك أنّ مرعي حين أنشأ المركز لفت الأنظار إلى القرية، بيد أنّه، في الوقت نفسه، أعاد الجدل بين المكتوب والشفهي إلى واجهة القرية، فجلّ الأهالي لا يؤمنون بما كُتِبَ عن القرية في أدب الرحلات، ولا يعترفون إلا بذاكرة الأجداد عدا المتعلمين منهم الذين يؤكدون في نقاشاتهم الدائرة أنّ أدباء الرحلات أوثق من ذاكرة الأجداد الشفهية،

فيما اقترح البعض على مرعي تدوين حكايات الأجداد وتحويلها إلى إنتاج مكتوب على غرار المخطوط، وترك الحكم بعد ذلك للباحثين الذين، من خلال الدراسة، سيصلون إلى حقيقة الأمر فيما يخصّ تاريخ القرية.

ربيع هو الآخر انضمّ إلى فريق مرعي البحثي بعد عودته من البعثة الدراسية طبيبًا، وكان قد افتتح عيادته في القرية فصارت مركزًا صحّيًا يفد إليه الأهالي ليس من القرية فحسب، بل حتى من خارجها بعد أن استطاع ملء الفراغ الطبي الذي كانت تعانيه القرية منذ زمن كانت تعتمد فيه على وصفات شعبيّة تستند إلى ذاكرة الناس وتجاربهم مع الأمراض التي غالبًا ما تخصّ الأطفال.

عاد ربيع بعد تجربة عاطفية وعلمية أفاد فيها من الأولى كما أفاد من الثانية، كان أبرزها احتفاؤه بابنة خالته سمر وزواجه بها فور عودته، وقد دار بينه وبين مرعي لاحقًا حديث في هذا الشأن لم يخلُ من دعابات وتعليقات ساخرة، هذا فضلاً عن تهديدات مرعي المستمرة لربيع بأن يخبر سمر بتجربته العاطفية الفاشلة.

عادت القرية إلى وهجها الأوّل أيام الطفولة، بعد دورة مرحلة كاملة، حين كبر الرفاق، فعادوا كأسراب الطيور إلى أعشاشها، أحدهم فيلسوف في التاريخ والحضارة، وآخر طبيب أطفال، وثالثٌ صاحب شركة شحن على مستوى المملكة، ورابع خبير في حفر الآبار، وهكذا اكتملت الرؤى والطموحات في شباب القرية، وبقي الجدل ممتدًا بين

العلم الحديث وذاكرة الناس حول اسم القرية وعلاقة العين بشمس وبالقبيلة نفسها متمثّلة بمرعي الأوّل الذي كان الكلمة الأولى في رواية القرية.

ربيع قال لسمر، في حدث استباقي:

«إن ولدتِ ذكرًا، سأسمّيه مرعي. هذا الاسم هو شمس القرية وعينها التي بها ترى. لا يهمّ بعد ذلك أن تشحّ العين بالماء إذا فاضت بمثل مرعي».

تذكّرت سمر على الفور حكايات والدتها وخصوصاً ما سردته لها عن ولادة مرعي، وكيف أنّه جاء بعد ظمأ وطول انتظار بعد أخواتها الخمس.

دخلت القرية مرحلة انتقاليّة جديدة كان لها الأثر الكبير في جعل اسم عين شمس ينال حظوة في ذاكرة المدينة الممتدّة، حيث برزت في الخريطة كأهمّ معلم على طريق الحجاج، وبرغم ذلك لم تفقد ملامحها الاجتماعية المتمثّلة ببساطة الناس وانحيازهم إلى العيش على طريقة البدو الذين يفضّلون استمرار حياتهم كما هي على الأطراف دون أن يوغلوا في تفاصيل المدن وضجيجها الداخلي.

- ٥ -

بعد عودته من كندا أراد ربيع أن يجعل من مشروعه الطبي المتمثل بعيادة القرية مشفى طبيًّا يشمل مجموعة من التخصصات الطبية، كما يتّسع خارج حدود القرية، وقد أبلغ مرعي بفكرته فاستحسنها، وشدّ على يده، فالمركز البحثي والمشفى الطبي لا بد أن يسيرا جنبًا إلى جنب متحاذيين، وقد لاقت هذه الفكرة استحسان أهالي القرية الذين أبدوا رغبتهم في دعم المشروع الثنائي بالمال إن لزم الأمر، بيد أن مرعي وربيع وعدا الأهالي بتدبّر الأمر مع أمير المنطقة ليحظيا بدعم المشروع من قبل الدولة، وبالفعل أعدّا طلبًا مصحوبًا باستراتيجية تخطيطيّة للمشروع لعشر سنوات قادمة. فكّر ربيع هذه اللحظة في كيفية استقدام الفريق الطبي، وما هي التدابير اللازمة لمثل هذا العمل؟ وحين عرض الأمر على مرعي أشار إليه بالذهاب إلى الأردن وتركيا والتجوال في مخيمات السوريين لعله يجد عددًا كافيًا من الأطباء الذين لا يمارسون المهنة بسبب ما حدث في سوريا.

كان هذا الاقتراح من مرعي بمثابة الصدمة الكهربائية التي أدخلت ربيع في حالة من اللاوعي، إذ فور سماعه لهذا الاقتراح شعر بما يشبه

الذهول غير الإرادي، حين دخل في دوّامة من التفكير، وارتحل بروحه إلى تلك الأيام السالفة التي قضاها في مقهى قرميدا بكندا، أو مقهى شمس كما يسمّيه، كأنما كان هذا الاقتراح بساطًا سحريًا عبر به المسافة التي كان قد قطعها بصعوبة قبل أن يصل إلى القرية ببالطو الطبيب حاملاً شهادته في طبّ الأطفال.

يذكر ربيع جيّدًا أن شمس قالت له، قبل أن تترك الكلية، حين أظفر بشهادة الطب سأعمل في بلدي، وإذا لم يتح لي ذلك فقد أغادر معك إلى السعودية للبحث عن عمل هناك، هل لديك مانع؟ ضحك وأجاب، بعد أن تكلف صوت مسؤولٍ مبحوح:

- ننظر في الأمر، فإذا كانت شهادتك من كليّة معتبرة، سنرحّب بك، بطبيعة الحال؟

ردّت عليه، وقد تقمّصت الدور جيّدًا:

- وماذا إذا كان وزير الصحة نفسه من الكلية نفسها؟
- ليس شرطًا أن تكون الكلية صالحة لاستقدام الأطباء المهنيين، فالوزراء كما تعلمين يأتون من أقلّ الكليات جودةً، بدليل أنّ وزارة الصحة لدينا ليست في مستوى طموحات الأطباء.
- ماذا تعني أيها الوزير؟
- أعني أنّ عليك البحث عن سبب مقنع غير زمالة الوزير، هل فهمت؟

بنصف ابتسامة وتنهيدة أغلق نافذة الحوار، وعاد إلى اقتراح مرعي متسائلاً، بينه وبين نفسه، لماذا يطرح مرعي هذه الفكرة في هذا الوقت بالذات؟ تُراه يفكّر في شمس ثالثة؟ مشروع مشترك يجمع بيننا في هذا الاقتراح الذي يبدو أنّه مدبّرٌ بليل؟.

- هل تفكّر في المشروع؟

قال مرعي لربيع.

وبعد لحظة تأمّل عابرة، استطاع بها ربيع ترتيب أفكاره على عجل، أجاب:

- بالتأكيد، لكن ما الذي تخبّئه وراء هذه الفكرة؟ أعرفك جيدًا يا مرعي، فلا تدّعي أنّك تتصدّق عليّ بفكرة خالصة ليس لك فيها مآرب أخرى.

ضحك مرعي بصوت عال، فيما هو يجيب بثقة الباحث الخبير:

- ألق عصاك أولاً، واترك المآرب الأخرى فأنا أتولّى أمرها. إذا وافقت على الفكرة سنعدّ العدة معًا لرحلة مشتركة، تبحث فيها عن فريق طبي، وأستفيد أنا من هذه الفرصة لهامشٍ قد يضيق أو يتّسع.

- هوامشك دائمًا تبدأ ضيّقة، ثم تلتهم المتن!

قال ربيع هذه العبارة، وهو على ثقة أن النهاية ستؤول إلى أن يكون هو هامش الرحلة. مع ذلك رحّب بالفكرة، وأردف عبارته بالموافقة وضرورة الإسراع في إعداد التجهيزات دون أن يستفسر من مرعي عن

هدفه الهامشي الذي يبدو أنّه هدف سيكون في غاية الأهميّة، فمرعي وحده من بين أبناء القرية، ومنذ طفولته، يتسلل إلى المكان الصعب من منافذ لا تخطر على بال أحد.

في الطريق إلى المطار اعترف مرعي لربيع أنّ د. جهاد الزاكي اكتشف مخطوطًا جديدًا يتعلّق بشمس التركية في مكتبة الجامعة الأردنية، وهي فرصة جديدة لإضافة شيء ما على حكاية شمس، وعلى هذا الأساس كانت فكرة هذه الرحلة المشتركة بين متن الطب وهامش التاريخ.

الفصل السادس

زمن التقويم

-١-

بدت عمّان كعادتها كل موسم صيف ملفوفة في ملاءة من غبار يحجب كل شيء عدا ملامح باهتة لأضواء أعمدة الطريق التي تصارع عتمة الغبار.

«كيف سنحتمل هذه الأجواء التي لا تحفّز إلا على العودة وترك عمّان قبل إتمام ليلة؟»

كان هذا السؤال أول ما بدأ به ربيع فور استقلالهما السيارة في الطريق إلى الفندق. حين وصلا قبيل المغرب بدأ الغبار ينقشع ولاحت شمس عمّان في طرف الأفق في منظر بديع أشبه بلوحة غروب فاتنة.

مشهد أعاد إليه الأمل برغم أنه يمثّل حالة الغياب.

قال لمرعي:

«هل لاحظت أن وصولنا إلى الفندق تزامن مع لحظة غروب مدهشة للغاية؟» وأردف بسؤال آخر:

«كيف تقرأ هذا المشهد؟».

أجاب مرعي:

«مشهد لا يحتمل سوى تأويل واحد، ما زال في رحلة البحث

مقدار قيد رمح، ولا بد أن نسرع من الغد باتجاه المكتبة للحصول على المخطوط الذي دلّني عليه د. جهاد الزاكي قبل أن نفقد هذه الفرصة ببند إداري أو علمي يحول بيننا وبينه.» نظر ربيع إلى مرعي، وقال بامتعاض:

«أهذا كل ما فهمته من المشهد؟!».

كان ربيع يدسّ شعورًا يعلم أن مرعي لا يجهله وإنما يتجاهله، وعادة ما يفعل مرعي ذلك حين يريد تجاوز أمر ينذر بجدل أو حرج، كيف وهذا الأمر يخص علاقة ربيع بسمر؟ ما الذي يمكن أن يحدث لو التقى ربيع بشمس في إحدى الخيام أو مراكز الرعاية؟ وما مآل هذا اللقاء؟ لهذا السبب لا بد من تقليص الوقت الخاص بزيارة المخيمات والاكتفاء بزيارة سريعة أو ضرب موعد مع عدد من الأطباء عن طريق وزارة الصحة الأردنية حتى لا يؤدي البحث والتجوال إلى فرصة أوسع للقاءٍ محتمل.

كما توقّع ربيع.. يجيد مرعي توسيع هامشه لطرد المتن الأصلي، كما يفعل في تحقيقه للمخطوطات حين يشنق المتن في سطر معلَّق على طرف الصفحة الأعلى.

بدت الأردن لهما باهتة الملامح. شوارعها رتيبة، وكأنها تسير بلا مقود. وجوه الناس التي تلوح من بُعد على أرصفة الطرق لا تعبّر عن الحيوية التي يعرفانها في الرجل الأردني. قال ربيع:

- يبدو أن الأردنيين يختلفون في وطنهم، فهم هنا غير هناك؟
- ماذا تعني؟

سأله مرعي وأردف، قبل أن يدخلا في حوار جاد:

- هل تعني أن الأردني لا يجد نفسه سوى خارج بلده؟
- كلا، لا أحد يعدل بالوطن بلدًا آخر، إنما عنيتُ أثر ما يحدث حول هذه البقعة المحشورة بين منطقتين ساخنتين.
- تقصد سوريا والعراق؟
- بلا شك. وأظنك لاحظت أثر ذلك في رتابة الحياة وقلق الناس مما يحدث حولهم.
- ليس الأمر خاصًا بالأردن وحدها، فالعالم العربي كله صارت شوارعه خائفة قلقة، تسير بوهن وتثاؤب أيضًا.

فور ذلك سادت لحظة صمت دخل في إثرها ربيع في عالمه الخاص فيما الشوارع تسير من خلال نافذة السيارة المتجهة إلى الفندق.

كان ربيع يهجس في نفسه بلقاء شمس الدمشقية في أحد المنعطفات التي بين الخيام. ارتسمت في ذهنه بملامحها المشرقة المحاطة بالشال الأزرق ؛ فشعر في داخله بشوق بالغ إليها جعله ينصت إلى أعماق نفسه مستدعيًا تلك الأحاديث الهامسة بينهما في المقهى. كانت أحاديث علمية بشعور حبّ خفيٍّ يتبادلانه في صور مسائل معقّدة، فيما هما يخوضان تجربة حبّ صامتة تزداد عمقًا كلما ازدادت المسائل تعقيدًا.

-٢-

في جامعة اليرموك، حيث تقع مكتبتها في بهو واسع قبالة مبنى كلية الآداب. يظهر المبنى في طراز معماري فخم، مكوّن من ستة طوابق مكسوّة بالحجر الأردني وله واجهات زجاجية في أطرافها رخامٌ صقيل،حين تنعكس عليه أشعة الشمس يبدو أشبه بلؤلؤة تشعّ في كل اتجاه.

تقع المكتبة تحديدًا بالنسبة لخارطة المبنى الجامعي قريبًا من البوابة الشمالية للجامعة، وتطلّ على حديقة فسيحة من أكبر حدائق الجامعة وأجملها. تحتوي المكتبة من داخلها على قاعات واسعة للمحاضرات وأخرى لمطالعة الكتب، وتعدّ المكتبة بشكل عام إحدى أكبر مكتبات الشرق الأوسط.

حين دلف مرعي وربيع داخل المبنى لفتتهم حركة دؤوب داخل المكتبة، فبدا الأمر فارقًا عند ربيع، الذي علّق على ذلك، بتأكيده على أن هذه الحركة تبشّر بصحوة علمية يستحق عليها العالم العربي التقدير والتشجيع، وعلى الفور تذكر ما كان يحدث في مكتبة كلية الطب في كندا، وقد ترك ذلك كله انطباعًا في نفسه بأن المكتبات هي المعيار

الحقيقي للنهضة العلمية،فليست وفرة المباني ولا هندسة المعمار ولا حتى وفرة القاعات الدراسية هي المعيار الصحيح الذي يمكن من خلاله الحكم على المستوى العلمي أو التعليمي في أيّة جامعة.

موظف المكتبة الذي التقاهما على مدخل المبنى تبدو ملامحه صارمة، فعيناه الباهتتان وجبينه العريض وشعره المنسدل الذي يتخلله وميض صلع خفيف. كل تلك الملامح تشير إلى رجل جادّ لا يلتفت لغير عمله، ولولا إصرار مرعي على إخراج ابتسامة للتوّ تفتّقت عنها شفتاه ما كان ليحدث بينهما حوار من الأساس، بيد أن مرعي بعد مناورة حوارية استطاع أن يدير حديثًا إنسانيًا خارج إطار العمل الرسمي، حين عرّفه بربيع أولاً، وبسخرية أراد بها تلطيف الجو، قال:

- هذا صديقي ربيع، يبحث عن امرأة ضائعة بين المخطوطات، فهل لك أن تدله على رف الآنسات أو حتى السيدات اللواتي ينمن هنا في مخادع ورق البردي؟

ابتسم ربيع لهذا السؤال المفاجئ، ونظر إلى وجه الموظف، الذي تبيّن فيما بعد أنّه أمين قسم المخطوطات، فقال مرتبكًا:

- بل هو العاشق الذي ورّطني في مغامرته الغرامية هذه، لكنه دائمًا ما يتذرّع بي لتحقيق طموحاته.

أعقبهما بغمزة ولكزة تستبطن مكرًا مقصودا!

تحت تأثير هذه الدعابة أنسَ موظف المكتبة بهما حيث جذبه ظرفهما، فقال معلقًا على ما سمع:

- جئتما من بلدكما من أجل امرأة؟
- أجل، امرأة!

أجابه مرعي، وأردف:

- امرأة تعيش في القرن الثاني عشر الهجري، تسكن في مخطوط يقال إنه في هذه المكتبة التي تعمل قيّمًا لها، فهل تساعدنا على الوصول حيث تسكن ؟
- لا بأس.. هات رقم المخطوط وعنوانه والحقل العلمي الذي يصنّف فيه.
- لا أدري بالضبط، هو في التاريخ أحيانًا، وأحيانًا في الحضارة، وربما عثرت عليه في حقل الآداب، لأنه من المحتمل أن تكون المرأة التي نبحث عنها مؤرخة وأديبة وعالمة آثار أيضًا.
- فضلاً، هل معك الرقم؟

أجابه مرعي بدعابة:

- لم تكن تمتلك هاتفًا في ذلك الوقت!

حدجه الموظف بنظرات باهتة، وبابتسامة قادمة من أقصى النفق، استدرك:

- أعني رقم المخطوط.
- نعم، دونك هذه الورقة

ناوله ورقة مجعّدة مكتوب عليها:

«**إلى سعادة الدكتور زياد الشراعي، تحية طيّبة..**

آمل مساعدة الباحث في الحصول على المخطوط، رقم ٣٠١٩ من قسم المخطوطات بمكتبة الكلية العامرة، فحامل الورقة باحث جادّ ومهتمّ بالآثار التاريخية والإنسانية، وقد حدّثتك عنه سابقا».

طلب الموظف من مرعي إملاءه الرقم فقط، وذكر له أنه بالإمكان مقابلة د. زياد بعد يومين في مكتبه، كما أن عليه العودة في المرة القادمة ريثما يرتّب وضع حصوله على نسخة مصوّرة من المخطوط.

سأل ربيع:

- هل الأمر معقّد إلى هذا الحد؟
- أجل، فإدارة الجامعة لا تسمح بتوفير المخطوطات إلا بعد التحقق من أنها في دائرة المسموح، وهذا يتطلب إجراء إداريًا يحتاج إلى يوم أو يومين.
- لا بأس.. شمس تستحق أكثر من ذلك.

قال مرعي، ثم نظر إلى ربيع موجهًا إليه السؤال:

- أليس كذلك؟
- بلى يا صديقي، وهذا سيتيح لنا التفرغ للبحث عن الفريق الطبي ريثما يجد لك خازن المكتبة موعدًا غراميًا مع شمس.

للمرة الأولى يلتقي نادر، أمين قسم المخطوطات، هذا النوع من الباحثين، إذ بدَوَا له يتحدثان حديث عاشقين لا حديث طلاب همهم الحصول على مخطوط مطويّ في خزانة التاريخ الميّت.

كان نادر لا يعير المكتبة اهتمامًا سوى ما يتعلق بعمله. وبرغم أنّه

تخرّج في الجامعة وعرف نظام المكتبات وقبل ذلك كوّن صداقة لا بأس بها مع الكتب والمؤلفين، إلا أنه فقد شعوره الحميم تجاه المكتبة بمجرّد انخراطه في هذه الوظيفة التي أحالته إلى خازن مخطوطات لا يتجاوز فهرستها وترتيبها على الرفوف وحفظها من الغبار والعثّة.

قال هذا لأحد طلبة الماجستير حين حدث بينهما جدل حول ما ينبغي أن يقوم به من خدمة للباحثين، بيد أنه ما إن فرغ من حواره مع هذين الشابين غريبي الأطوار حتى عاد إلى فترة سابقة كان يجد فيها مذاقاً لرؤية الكتاب.

استيقظ في داخله فضول غريب تجاه الكتب، رغبة في العودة من جديد إلى هذا العالم الصامت الذي ظلّ زمنًا يحرسه من العثة والتآكل، ويضع على أنصابه أرقامًا وتواريخ باعتبارها في نظره شواهد قبور لا مكتبة تضجّ بالأحياء من عالم الموتى.

- ٣ -

تقع مخيمات اللاجئين السوريين في المنطقة التي تلي البحر الميت، في أرض خلاء ممتدة، لا يكاد القادم إليها يرى فيها جبلاً ناتئًا. رؤوس الخيام الشاخصة باتجاه السماء كأنما تختصر المشهد كله فيما يخص هذا الشعب المقهور.

- كل شيء في هذا المكان ميت.. حتى البحر قد توافق مع اسمه أخيرًا بعد أن ظل وحيدًا ينتظر اكتمال المشهد.

قال ربيع ذلك،بعد أن أثاره المشهد الحزين،و لاح في خياله طيف شمس الغائبة، فشعر بقشعريرة تشي بعالم يوشك أن يسدل ستار النهاية!

رد مرعي، وفي أعماقه حركة احتجاج علمي على كل ما يحدث لهذا الوطن التاريخي المجيد:

- تاريخنا، حضارتنا، أراضينا، كلها تحت تصرّف الساسة الذين إذا أدركوا نهضةً أفسدوها.

وعلى الفور تذكّر قرية عين شمس بغبطة، فشكر الله بتنهّدٍ عميق، وأضاف:

- لو لقيت بلادنا ما لقيته هذه البلدان من حولنا من صراعات وبطش لما أمكننا اليوم أن نبحث بهذه الطمأنينة عن شمس غائبة وراء سطور المخطوطات.

وبصوت أشبه بحديث واعظ على منبر، التفت إلى ربيع والسائق يستمع باهتمام، وقال:

- حين تتحول الأرض إلى ساحات حرب، وملاجئ، تتحول المخطوطات إلى رغبات باهتة. لا معنى لتحرير النصوص وتنقيح الأصول، لا معنى لدراسة الآثار وصوت الطائرات الحربية يهيمن على العالم. في السابق كانت الحروب تسير بمحاذاة الحركة العلمية لأنها حروب بدائية تجمع بين السيف والقلم في وقت واحد، وهي إنسانية أيضًا. أما حرب اليوم فمدفع واحد كفيل بإحراق مكتبة كاملة لا يعد ما فعله المغول ببغداد شيئًا قياسًا بها. دعك من مخيلة التاريخ التي لو رأت واقعنا لاحتقرت كل ما حدث في بغداد آنذاك.

نسي مرعي نفسه وهو يعلن احتجاجه على العالم الميّت أمامه، لولا أن ربيع قاطعه منبّهًا:

- لا وقت الآن لتحويل المكان إلى متن تشرح لنا مفرداته، فالحال تغني عن المقال. هيا، لا نريد أن نتأخّر كثيرًا في هذا المكان الذي يغلق كل نوافذ الشمس من حولنا.

وافق مرعي على ما قاله ربيع، فقطع موعظته، ونظر باتجاه المخيم

الفسيح الذي بدت خيامه أشبه بسجون جماعية قد أحيطت بأسلاك الموت الشائكة.

انطلقا بين الخيام حتى انحنى بهما ممر ضيق إلى اليمين. لاح مركز مكتوب عليه الوحدة الطبية. طلبا من السائق أن يعرّف بهما حين يقتضي الأمر ذلك. حين دخلا المركز وجدا مكتب المراقب مغلقًا ففضلا الاستراحة في صالة الانتظار حتى يحين موعد حضوره. كان الوقت صباحًا، في حدود الساعة السادسة والنصف، حيث فوجئا أن الوقت متسع أكثر من اللازم.

في الطريق بين الخيام بدت لهما بعض الوجوه الشاحبة التي لم تعد ترسم ملامح السوري المألوفة، خصوصًا الأطفال الذين يطلون من جنبات الخيام بأجساد هزيلة. على الفور تذكّر ربيع حديث شمس، حين أخبرته أنها اختارت طب الأطفال لهذا الغرض. هجس في نفسه:

- كانت محقة إذًا، لكنها للأسف تركت الكلية قبل إكمال الدراسة..

هزّ رأسه، ثم هجس ثانية:

- لعل تخصصها العام كاف، فهؤلاء الأطفال ليس في حاجة لأكثر من الرعاية الصحيّة قبل أن تدهمهم أمراض المجاعة والحرب.

ثم التفت إلى مرعي، وقال:

- لا أريد أن تكون حاجتي إلى الفريق الطبي على حساب هؤلاء..

وحين لم يجبه مرعي المشغول بحديثه الطويل، هجس في نفسه ثالثة:

- ليس بالضرورة أن أعود بفريق طبي. طبيب أو طبيبان يكفيان..

وفيما هو يتحدّث مع نفسه شعر برغبة تتصاعد في أن يلتقي شمس بين الخيام. صعدت شمس إلى المتن، فترك كل ما سوى ذلك في الهامش. حينذاك صدمه هذا الشعور، فغمره حرجٌ داخلي، لكنّه نفضه سريعًا حين طمأن ضميره أنه لو لم يكن كذلك ما شعر بآلام الآخرين من الأساس.

- ٤ -

حين أقبل مرعي وربيع على المكتبة الجامعية تلقّاهما نادر بترحاب بدا لهما مختلفًا عن استقبالهما قبل يومين، فقد كان هذه المرة حفيًا بقدومهما. هل كان اللقاء الماضي عتبة لألفة اليوم؟ أم أن أمين المكتبة العابس تلقّى رسالة توصية من قبل الدكتور جهاد أو الدكتور زياد وسيطهما الآخر الذي لما يلتقياه بعد؟.

يبدو هذا التفسير مقنعًا وكافيًا لعدم الاسترسال في ترحاب يفترض أن يكون طبيعيًا في مؤسسة تعليمية مرموقة، لولا أن نادر نفسه كشف عن السبب بعد دقائق من جلوسهما، حين بادرهما قائلاً:

- حين غادرتما خشيت ألّا تعودا لشدة حرصي على أن ألتقيكما مرة ثانية، فقد كان حديثكما قبل يومين سببًا في إيقاظ شعوري القديم تجاه المكتبة. كنتما تتحدثان عن امرأة تسكن إحدى المخطوطات بلهفة عاشقين. ما شأنكما وهذه المرأة؟ سألت نفسي. فوجدت أن علاقتكما بالكتب والمخطوطات علاقة تستحق أن تكون محل اهتمامي وعنايتي أنا الذي أعيش بجوارها منذ عشرين عامًا. شعرت

أنكما تتحدثان بحب عن هذا العالم الميت في نظري، وهذه النظرة هي التي جعلتني أشعر بالسأم والكآبة وكأنما كنت أحد حفاري القبور الذين لا يعنيهم من الجثث سوى دفنها ونبشها لدفن جثث أخرى. حواركما بالأمس كان سببًا في إعادتي إلى مطلع شبابي حين كنت أحتفي بالكتب قبل أن أقرّر حراستها في وظيفة حكومية كئيبة.

- هذا حسنٌ، وهل كانت بينكما علاقة أخرى ؟

قاطعه ربيع بسؤال من يود تغيير مجرى الحديث إلى ماض سبق.

فأجاب نادر في غير تردد :

- ذلك الشعور الذي أعادني إلى هذه المكتبة بروح المحب، لا روح الموظف، فمنذ عينت في هذا المكان وأنا أرى الكتاب علامة للمثقف الصارم الذي لا يشعر تجاه الحياة برغبة العاشق، وإنما برغبة المكبّ على عالم الموتى.
- تعني أنّ حراستك للكتب هي التي أورثتك هذا الشعور البارد تجاهها ؟
- نعم، كلّ عمل بطريقة صارمة يؤدي إلى هذا الشعور الميّت تجاه ما تجب علينا حمايته.

قال هذا، وأضاف، وهو يشير إلى ركن المخطوطات في الطابق الثاني:

- حديثكما بالأمس عن المخطوط رقم (٣٠١٩) أعادني إلى

أيام شبابي يوم كنت طالباً أقضي وقتي في المكتبة الجامعية بين الكتب والمخطوطات. أعادني إلى موقف قديم مع مخطوط نادر كان أستاذي في الجامعة يربط بيني وبينه بسبب الاسم. كان يقول لي مشجّعًا: «الأشياء النادرة لها قيمة خاصّة»، وكان يتنبّأ لي بمستقبل يتوافق مع دلالة اسمي الذي ذهب بي في الاتجاه الآخر.

قال ربيع، بغية قطع الاسترسال في حكاية قد تطول، منتهزًا فرصة الصمت اليسيرة التي أعقبت أسفه:

- بالمناسبة.. ماذا فعلت بخصوص مخطوطنا النادر؟
- الرقم غير مدرج في المكتبة، وهذا يعني أن احتمال وجوده مرتبط بالدكتور زياد الشراعي، فانتظرا حتى يعود من رحلته العلمية القصيرة.
- أهو في رحلة علمية؟
- نعم، لديه مؤتمر في تركيا وسيعود خلال اليومين القادمين. هذا ما ذكره رئيس القسم، وهي فرصة لأدعوكما على وجبة العشاء الليلة لنسمر معًا، فتقصا عليَّ حكاية المخطوط الذي جاء بكما إلى هنا، ففي ظني أن مخطوطًا كهذا جدير بحديث أوسع من جلسة انتظار عابرة.

رحّب مرعي وربيع بالدعوة والفكرة معًا، وقد فاجأهما أمين

المكتبة بحديث منهمر كان ينتظر فرصة انهماره منذ يومين، إذ علق ربيع قائلاً لمرعي، فيما هما في الطريق إلى الفندق:

- لم أتوقع أن يكون أمين المكتبة العابس بهذا الإحساس، فقد كان قبل يومين مثالاً للصمت الكئيب، وأظن حديثنا الباسم لامس شيئًا في أعماقه فانهمر به هذا اليوم.

عقّب مرعي، بعد أن أشار إلى السائق بالسير على مهل، حين اضطربت السيارة تحت مطب صناعي..

- في الحياة كلمات كهذا المطب.. تهزّك من الداخل، ترفعك وتخفضك.. قد تتغير بعدها طريقة سيرك.!

ضحك ربيع بقهقهة عالية، معلقًا:

- تستثمر حتى المطبات يا فيلسوف عين شمس!

وفيما كانوا غارقين في لجّة ضحك صاخبة، علّق مرعي:

- هذا إذا سلمنا من مطب كبير ينتظرنا الليلة في قرية صاحبنا الجديد!

-٥-

في اليوم التالي انطلق ركب الرحلة باتجاه الشرق، في أطراف المدينة، متجهين إلى منزل نادر.

قبيل الغروب كانوا خارج النطاق العمراني يسير بهم طريق إسفلتي، محفوف بأرض فضاء من الجهتين، تتخللها مزارع نخيل بنصف حياة. تبدو جذوع النخيل مائلة في إشارة واضحة إلى فناء زراعي عدا بعض النخلات التي تقاوم الزمن بشموخ استثنائي.

قال مرعي معلقًا على مشهد الموت والحياة معًا:

- تبدو هذه المنطقة شبيهة بقريتنا التي تتخللها مزارع بين الحياة والموت. تلك النخلة الباسقة وحدها تذكّرني بنخلة والدي التي غرسها بيده في المزرعة فبقيت وحدها من بين أكثر من ثلاثين نخلة هلكن لأنهن كنّ غرس العمال الأفغانيين الذين استقدمهم لهذا الغرض.

وبتعليق طريف أضاف:

- لا بد أن هذه النخلة غراس رجل أو امرأة نمت في هذه الأرض، هكذا أفهم علاقة النخل بالأرض والإنسان.

بعد سير نصف ساعة تقريبًا مال الطريق باتجاه اليمين غربًا، فدلفت السيارة في أرض زراعية خصبة، تبدو الحياة النباتية فيها مزدهرة. تلا مرعي قوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ﴾، وقبل أن يهمهم بأغنية يعبّر فيها عن فرحه تذكّر جلال القرآن وهيبته، فصمت قليلاً، ثم قال متجها بنظره إلى الأرض الفسيحة:

- أشعر بارتياح تجاه هذا المكان، ويخيّل إليّ أن تضاريس هذا المكان امتدادٌ لتضاريس قريتنا،النخيل والصخور المتناثرة والحرات القليلة التي تظهر وتختفي على ضفاف الطريق،حتى الآبار المهجورة تذكّرني ببئر عين شمس.

قاطعه ربيع معلّقًا على منظر جبل بدا فريدا في جلاله وجماله:

- سبحان الله، يا لجلال الخالق وجمال الخلق!

حين رآهما السائق يعلقان على ما حولهما بشعور السائح المندهش، شرع في الحديث متقمّصًا دور مرشد سياحي:

- يصرّ بعض السكّان هنا أن هذه المنطقة لها علاقة بتاريخ الأنبياء، وخصوصًا ما يتعلق بموسى عليه السلام وجبل الطور، وتهتم هيئة الآثار عندنا بهذه الأماكن ؛ فتولي الجبال الصخرية عناية أكثر.

وأردف، مشيرًا إليهما:

- لكني لا أملك تفسيرًا لذلك، فلعلكما تفسران هذا الاهتمام بما أنّ لكما علاقة بالمخطوطات.

- هذا الأمر يتعلق بدراسة الآثار، عن طريق كتب التاريخ والوثائق المختصة بذلك..

قال مرعي، معقّبًا، وبعد أن هيّأ نفسه للإيغال في هذا العالم وجدها فرصة سانحة ليضيف:

- دراستي في الجامعة كانت عن قرية عين شمس، وهي قرية تقع في الشمال من مكة، خارج النطاق العمراني، حيث قمت بدراسة تضاريسها وتاريخها الممتد عبر قرنين من الزمان، فوجدت بها آثارًا تستحق العناية، بحكم أنها طريق للقوافل القادمة إلى مكة، لكن جوهر بحثي كان متعلقًا بتاريخ الإنسان في القرية، وقد درست علاقة العين بامرأة يقال لها شمس، ذكر بعض رواة القرية أنّها حفرت عين ماء تأسّيًا بزبيدة فسمّيت باسمها، ورحلتنا هذه امتدادٌ لهذه الدراسة.

كان هذا أيضًا ما وضّحه مرعي لنادر بعد وصولهما إلى بيته واستراحتهما قليلاً تحت عريش محاط بالريحان وكروم العنب، مفروش بزل من السجاد الفاخر، تتدلى من سقفه الخشبي المدهون بطلاء بنيّ فوانيس عتيقة بالكاد تضيء،وقد وضع في وسط المجلس آنية فخارية معبّأة بالماء واللبن والتمر.

في الأثناء التي كانت تدار فيها القهوة كان مرعي قد فرغ من حكاية المخطوط، مضيفًا إلى ذلك دعابات تتعلق بربيع ومفارقاته مع

شمس الدمشقية التي قال إنها خرجت من رحم المخطوط صدفة إلى الحياة، ثم غابت صدفة، دون أن يعلم أحد سببًا عن غيابها.

نادر بعد حديث شاعت فيه روح الدعابة والحميميّة قص عليهما حكايته بإيجاز، عرفا من خلالها أنه يعيش مع والدته وزوجته وطفلين رزقهما في العشرين الثانية من عمره، وهو الآن يصرف على هذه الأسرة. أما نسبه فيتصل بجدّ كان مزارعًا، غير أنه لم يترك سوى هذه المزرعة الصغيرة التي في زاوية المنزل، وبرغم أنه كان من أقدر المزارعين وأوفرهم حظًا، إلا أنّ جائحة اجتاحت الزرع والضرع زمن المجاعة فاضطره ذلك لبيع العقار والاقتصار على المنزل والمزرعة.

عقّب مرعي على حديثه، مستدركًا:

- زمن المجاعة كان عامًّا.. لم يقتصر على هذه المنطقة فحسب، فقد اتسع حتى شمل البلاد الصحراوية كلها.. ولهذا عاش السابقون في شظف من العيش وشغلوا بطلب الرزق وتوفير أسباب الحياة عن التدبّر والتفكّر في عوالم هذه الصحراء الشاسعة التي تستحق الالتفات بعد أن استقرت الأحوال.

في نهاية السمر بدا أنّ الحديث ساقهم إلى رغبة مشتركة انبثقت عن فكرة مشروع يتعلّق بدراسة الآثار وإعادة اكتشافها من جديد، وقد اتفق الجميع على تسمية المشروع باسم (شمس) التي استحالت، أقلّه فيما يخصّ مرعي، إلى فكرةٍ ولود.

- ٦ -

لم يتوقع ربيع أن تتسع هذه الرحلة إلى هذا الحد، فقد كان في الحسبان أن تكون رحلة قصيرة لغرض علمي بحت وإن كان يأمل في لقاء عابر بشمس التي لا تزال حاضرة في ذهنه رغم غيابها الطويل، وكان يقدّر في نفسه أن مجرد حضورها في ذهنه يلغي غيابها، وعلى هذا نما لديه إحساس عميق أن شمس ستطلع في أحد الأيام من وراء لحظة حاسمة، سواء كانت في هذه الرحلة أو غيرها، بيد أنه بعد طرح فكرة المشروع المتعلق بالآثار ازداد يقينه أن كل ما يحدث ليس إلا توطئة من القدر ليلتقي صاحبته الغائبة.

تبدو هواجس ربيع أكثر حيرة من هواجس مرعي الذي يمثّل له المشروع خطوة إيجابية في الطريق إلى شمس، وسواء تحققت فرضياته البحثية أو لم تتحقق، فتطور فكرة البحث عن شمس ووصولها إلى هذا المستوى يعد نجاحًا لا يحتاج معه إلى إثبات حقيقة أو نفيها، وذلك ما صرح به مرعي لربيع حين ذكر له أنه تجاوز مرحلة البحث عن علاقة مفترضة بين شمس وجده مرعي الأول إلى مرحلة أرحب هي تحويل هذا الافتراض إلى علاقة بحثية في مشروع يربط القرية بعالم الآثار

ويمد جسور التواصل بين عين شمس وقرى الأردن وما جاورها في إطار قراءة الآثار وتوثيق التاريخ الجغرافي القديم.

في الطريق كان ربيع ساهمًا يتأمل الأفق المفتوح في صحراء الأردن ويود أن يصادف أمنيته ولو عبر فكرة شاردة.

كان يشارك الركب في حديث رتيب قد أدرك أن تفاصيله تتعلق بالآثار التي لا تزيده سوى رغبة في البحث عن الإنسان الحي متمثلاً بشمس الدمشقية؛ فهي أولى باهتمامه من امرأة غادرت الزمان منذ قرنين وهي ليست سوى سطور باهتة على مخطوط أو شاخص حجري.

بدأ يشعر أن مرعي يعبث أكثر مما يبحث، ومع ذلك فبوصلة الرحلة تشير إلى الجهة التي يرغب فيها والأحداث تميل إلى مصلحته، في الوقت الذي تباعد بينه وبين شمس وهذا ما جعله أقل حماسة، بل إنه صرح بهذا الشعور لمرعي حين أبدى رغبته في وضع حد لهذه الرحلة التي يرى أنها خرجت عن مسارها وأنه لم يعد يرغب في البقاء في الأردن أو حتى الدخول في مشروع الآثار تاركًا ذلك لمرعي ونادر صديقهما الجديد.

دار بينهما حديث حول ذلك انتهى بوعد مرعي له أن يحقق له رغبته فور الظفر بالمخطوط رقم ٣٠١٩.

بعد أن اتفقا على ذلك فضّلا النوم المبكر لإنجاز عملهما سريعاً في ساعات الصباح الأولى.

فور إطفاء السراج وجد ربيع نفسه يسير في فلاة ذات أحقاف

متتابعة كأمواج البحر. بدت تعرجاتها تظهر في شكل خطوط متناسقة على ورق جلدي، كأنما ابتلعه مخطوط عين شمس، فشعر برغبة في المضي باتجاه الأفق البعيد، هناك حيث يلوح له جبين شمسٍ منطفئة إلا من لون غروب مبعثر في الفضاء الممتد.

ما إن أوشك على الدخول في غمرة الغروب حتى بدت له وجوه لم يتبين ملامحها. كان من بينها وجه أدرك ملامحه بشكل جيد. كان وجهًا غريبًا قريبًا من ملامح مرعي لولا أن له لحية وعارضين وفي نظراته يلوح غياب عميق.

حين قص ربيع رؤياه على مرعي، ضحك وعلّق ساخرًا:

«لولا أنك تهذي منذ عودتنا البارحة لظننتك عثرت على جدنا الأول في آخر المخطوط!».

- ٧ -

في مكتب الدكتور زياد الشراعي بدا القلق على مرعي ظاهرًا أكثر مما هو على ربيع الذي ملأ لحظة الانتظار الطويلة بالتجوال ما بين الكتب القديمة المصفوفة في الرفوف والمخطوطات الملقاة في زاوية قصية من المكتب، وراح يتفحّص المنحوتات الأثرية المنصوبة في أعلى الدواليب. شدته منحوتة صقر من حجر المرو وأخرى بدت له في شكل مخطوط ممزق الأطراف، وللوهلة الأولى بدا له هذا العالم الأثري غير ذي جدوى. أشكال محنطة بلا أرواح، جعلته يتذكّر فكرة الموت بإحساس عميق، فسرت في جسده قشعريرة الغياب وفناء الأشياء. حينئذ كسر صمت الانتظار الذي كاد يحنّط مرعي على كرسيّ قلقه، ولكزه بسؤال يائس:

- ما جدوى مثل هذه المنحوتات التي فقدت روح التاريخ؟

حدجه مرعي بنظرة احتجاج، وأجاب باقتضاب:

- حياة التاريخ في موته.

حين شعر ربيع بامتعاض مرعي، عاد إلى الصمت مرة أخرى

وترك لنظره حرية الحركة في فضاء المكتب الذي بدا له عالماً من الأشياء الميتة.

واصل مرعي بعد ذلك توضيح فكرته بإسهابه المعتاد، حين قال يشرح فكرته عن تاريخ الآثار:

- لا يحيا التاريخ إلا حين تموت الأشياء التي صنعته. هذه المنحوتات في نظر عالم الآثار رموز تاريخية تخفي وراءها حيوات حافلة أكثر من مدلولاتها الحية. الصقر الحي يطير.. يذهب هنا وهناك.. لأنه لما يكتمل بعد، فإذا اكتمل دخل في عالم الأثر.. صار رمزًا أثريًا سخيًا. ولهذا لا يكتمل التاريخ إلا بعد أن يدخل في عالم الآثار، مخطوطًا أو منحوتًا ؛ ومن هنا تبدأ حياته.

وأضاف، فيما هو يقلّب صفحة إحدى الدوريَات العلمية الملقاة على سطح المكتب:

- ليس التاريخ سوى وجه آخر للموت الحي، الموت الذي يعلن حياته فينا.

و أردف متجهًا بنظره إلى ربيع:

- غيّر نظرتك إلى الأشياء يا ربيع، فشمس التي تسكنك لم تحيَ فيك إلا بعد أن فارقتك وصارت أثرًا من آثارك. شمس هي الأخرى منحوتة في ذاكرتك!
- حسنًا.. وما جدوى أن نطارد هذه الأشياء التي لا تعلن حياتها إلا بعد أن تفارقنا؟

قال ربيع معقّبًا، بعد أن تناول إحدى المنحوتات التي بجواره، وأضاف:

- أنت تعلم أن شمسك التي تطاردها لم تكن سوى فكرة علمية أشبه بالسراب!
- ولكنها هي التي أنجبت شمسك. ألم تكن امتدادًا لهذا المشروع الذي بدأناه معًا؟
- ليس ذلك بالضبط، فقد التقيتها مصادفة في الكلية الطبية!
- بل كانت جزءًا من الحكاية، ولولا أنها مرتبطة باسمها ربما لم تلفتك وتضعها في اعتبارك.
- كلا، لو كانت شمس الدمشقية تحمل اسمًا غير اسمها لكانت هي نفسها التي تستحق كل هذا العناء والبحث، لا شمسك الغائبة في بطون الكتب.
- الآن.. تقول هذا الكلام ؟ مع أن رسائلك التي أحتفظ بها عن تلك الفترة تتحدث عنها باعتبارها شمس القرية.
- شمس التركية بالنسبة إلي ليست أكثر من جسر عبور إلى شمس دمشق.. صحيح أن تلك الفترة كانت مناسبة للربط بينهما، لكن ما بدا لي اليوم هو أنك تسير في واد وأنا أسير في واد آخر.

بدا لمرعي أنّ الحوار يسير في اتجاه مضاد لفكرته، بل ومضاد

لعلاقة ربيع بسمر، فأراد تهدئة الوضع بأسلوب ترويحي ساخر. سحب المنحوتة من يدي ربيع وقال له بصوت خفيض:

- من الغريب أنك تتحدث بحماسة عريس ينتظر عروسه هذه الليلة، فاخفض صوتك حتى لا تسمعك سمر.

وغمز ربيع بعينه

- حديثي عن شمس الغائبة لا يضرّ سمر، فلماذا تفكّر بعقول النساء؟
- لكن تعلّقك بامرأةٍ غائبة ليس أبعد من تعلّق الظمآن بالسراب في فلاة مقفرة
- كل شيء انتهى الآن، ولم يبق سوى مخطوطك المنتظر، فلا داعي للقلق.

قال العبارة وأعقبها بابتسامة ود، ثم أدار الحديث باتجاه الكرسي الشاغر الذي ينتظر د. زياد الشراعي:

- متى يأتي صاحبك هذا؟ ألا تشعر بملل سببه هذا التحفّظ الشديد على مخطوط فارغ؟
- اسمع.. هذا صوت قادم باتجاهنا..
- حسنًا.. دع كل شيء مكانه الآن، وأغلق هذا الكتاب الذي تحت يدك.

دخل شخصٌ بدت ملامحه ترسم قامة متوسطة الطول، نحيلاً، يشي وجهه بعمر يناهز السبعين. عيناه غائرتان تحت حاجبين كثيفين،

وقد بدا لهما أكثر جدية مع وقار يجلله شيب الرأس وبقايا بياض للحية محلوقة تومض كسراب بعيد. بصوت خفيض ومهذّب ألقى عليهما السلام، ثم رحّب بهما، واعتذر عن التأخّر بسبب السفر والانشغال ببعض الأعمال الأكاديمية.

بعد فترة صمت قصيرة، قال مرعي:

- لعل الدكتور جهاد أبلغك بالأمر..
- نعم، ومعي ما تريد.. أنت مرعي؟
- نعم، وهذا صديقي ربيع.
- أهلا وسهلا

ردّ ربيع التحية بمثلها، وأدار دفة الحديث باتجاه مرعي:

- المخطوط هو صديقه الأثير وما أنا إلا صاحب متطفّل

وفي دعابة ساخرة علّق مرعي على كلامه:

- من الواضح أنه يريد الانضمام إلى هذه المنحوتات التي تملأ المكتب..

ضحك الجميع، فوجدها د. زياد الشراعي فرصة كي يتحدث قليلاً عما يرونه ماثلاً أمامهم:

- ما ترونه من منحوتات ومخطوطات نتاج رحلة عمر مع تاريخ الآثار،فقد أنفقت أربعين عامًا من عمري في هذا العالم العجيب.

هنا تدخل ربيع متسائلاً:

- وبم خرجت أستاذنا القدير؟
- بحياة أخرى. عالم يدلف بك إلى تفاصيل مدهشة من الرموز وتاريخ الإنسان عبر ما تركه من أثر عميق.
- لكن.. أستاذي.. ألا ترى أن هذه الآثار قياسًا بحاضرنا اليوم تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد،على حدّ ما قال طرفة بن العبد ؟!
- هي كذلك حين ندعها تلوح.. لكن بعد أن نعمّق النظر يبدو حاضرنا هو الوشم!
- هل معنى هذا أن ندع حاضرنا..؟

سأل ربيع مستفسرًا في صيغة اعتراض.

- بل ننظر إلى حاضرنا في سياق هذا الماضي الرحب المتسع، فهذه الآثار التاريخية التي تركها الأوائل هي أساس فهم حياة الإنسان وفهم تاريخه الطويل.

لم يشأ مرعي ترك الحوار يتسع أكثر، فأدار الحديث باتجاه المخطوط:

- وهذا بالضبط سبب حرصنا على المخطوط.. فهل تسعدنا به د. زياد؟
- بكلّ سرور..

قال د. زياد، وعلى الفور أخرج المخطوط من درج مكتبه وناوله (مرعي)، معقّبًا:

- أعتقد أنّه سيفيدك ويفتح لك مغاليق ما معك من وثائق تخصّ دراستك، فاقرأه بتمعّن، وقارب بين المخطوطات بتأنٍّ ولا تتعجّل النتائج!

أخذ مرعي المخطوط في مظروف محكم الإغلاق، فبدا له أثقل مما توقع، إذ كان في حسبانه أنه بضع ورقات يكتمل بها محو الماء في مخطوط البئر.

في طريق العودة كانت كل الأشياء تشرق في عين مرعي.. وتعلن غيابها في عين ربيع.

الفصل السابع

زمن التأويل
ما لم يصله الماء من المخطوط

-١-

كما لو أن القرية عادت إلى سيرتها الأولى، بدا كل شيء من حول مرعي وصديقه ربيع قد استعاد بكارته. سلسلة الجبال السوداء من جهة الشمال تبدو في هيئة أجداد القرية الماضين قد اصطفوا يرقبون المشهد بصمت حكيم.

البئر فاغرة فوهتها بعد أن خلعت غطاءها الحديدي، وشجرة السَّمُر الوحيدة تبدو أشبه بأول نبتة في الوجود الكوني إذ خلع الخريف أوراقها فبقيت عارية إلا من غصونها الشائكة المتشابكة.

الأرض خالية من آثار الأقدام برغم ليونتها الرملية، ما يشير إلى أن القرية أعرضت عن جهتها الشمالية منذ تركها الأطفال نهبًا للدواب السائمة التي تركتها هي الأخرى بعد أن فقدت الرعي.

عاد مرعي إلى مراتع الطفولة يحمل مظروفًا سميكًا، ومعه عاد ربيع من دون ردائه الطبي.

حين فتحا المظروف، قبل عودتهما من الأردن، بدا لهما أن الحكاية عادت من جديد. قال مرعي معلقًا على صورة المخطوط الجديد:

«أحتاج إلى وقت أطول لقراءة المخطوط وتأمّل صفحاته ومقابلته بمخطوط القرية»، ثم التفت إلى ربيع وأضاف:

«لا بد من معرفة علاقة هذا المخطوط بتاريخ القرية،سواء كان تكملة لمخطوط البئر أم كان مستقلا عنه، المهم أنّ المقاربة بين المخطوطين هي خطوتنا التالية في هذه الرحلة العلمية».

على هذا الأساس قررا معًا أن يعودا إلى القرية وأن يكون بينهما موعد لقاء عند البئر.

حين وصلا إلى البئر قال ربيع لمرعي:

«أقترح عليك أن تقرأ المخطوط في سعة من الوقت، فالأمر لا يحتمل العجلة، كما ينبغي لك نسيان ما ورد في مخطوط البئر حتى لا تفترض ما لم يحدث أو تفرض على المخطوط الجديد دلالات غير محتملة».

صادق مرعي على ما قاله ربيع، فقرر أن يقرأ المخطوط كما لو كان كتابًا حديثًا يتحدّث عن سيرة قرية مجهولة لا علاقة لها بقرية عين شمس، ليس لشيء سوى أن يترك للنصّ فضاءه التاريخي الحرّ دون أن يضيّق مجراه فيرغمه على أن يصبّ في البئر القديمة.

- ٢ -

فور فراغ مرعي من قراءة المخطوط الجديد وجد بينه وبين مخطوط البئر ملامح مشتركة، فالبنية السردية واحدة، والأحداث والشخوص متقاربة، ما جعل مرعي يسجّل الفروق الجوهرية، وهي كما رصدها تتمثّل في أن المخطوط الثاني كان مختلفًا في أسلوبه بشكل جذري، فقد لاحظ أنّه أسلوب تراثي أشبه بأساليب كتاب الترسل في العصر العباسي وكأن صاحبه يحاكي ابن العميد أو الجاحظ، خلافًا لأسلوب مخطوط البئر الذي بدا له منذ قراءته الأولى أشبه بأساليب الكتاب المعاصرين، بالإضافة إلى أنّ الساردة في مخطوط البئر تحوّلت إلى شخصية داخل النص القديم، إذ كان كاتب النصّ أقرب إلى المؤرخ منه إلى السارد الداخلي كما في مخطوط البئر ؛ وهو ما جعل مرعي يفترض بناء على أسلوب المخطوط الجديد (مخطوط الجامعة) أنّه الأصل، في حين بدا له مخطوط البئر، وهو افتراض أيضًا، صياغةً جديدة لكل ما ورد في مخطوط الجامعة بأسلوب حديث.

لكن ثَمَّة أسئلة عدة نتجت عن الافتراضين السابقين: كيف وصل المخطوط إلى البئر؟ وهل كاتب المخطوط فعلاً عثر على مخطوط

الجامعة وتقمّص دور الساردة ثم ألقى بالمخطوط في البئر؟ أم أنّ كلا المخطوطين أصل، أحدهما سيرة ذاتية، والآخر تاريخ مسرود للقرية؟.

رجّح مرعي الاحتمال الأخير بناءً على الفرق الجوهري الآخر، وفحواه أنّ مخطوط الجامعة أوسع من مخطوط البئر من ناحية، ومن ناحية ثانية يبدو جزءًا من تاريخ طويل فُقِدَ ولم يبق منه سوى الأحداث التي تتقاطع مع مخطوط البئر.

سجّل مرعي ملحوظاته بشكل عام، وفي نيّته العودة مجددًا لكتابتها في صورة حكاية تاريخيّة تجمع بين النسختين، الذاتية الخاصة بالساردة وشخوصها المحورية، والموضوعية التي تتّسع فيها الأحداث قليلاً في سرد تاريخيّ مع استطرادات تضيء جوانب مهمة حول المنطقة التي تحيط بقرية عين شمس، كما تشمل الشريط الممتد بمحاذاة الساحل قبالة سلسلة الجبال التي تمتدّ من الجهة الشمالية، وقد عزم على تسجيل أحداثها بأسلوبه في عمل سرديّ يتقمّص فيه شخصيّة فيلسوف حكّاء يرصد تاريخ القرية على لسانه، مستندًا إلى ما تمدّه ذاكرته بدءًا بحكايات الطفولة، مرورًا برواة القرية، وانتهاءً بما توصّل إليه أخيرًا عبر المقارنة بين المخطوطين اللذين اكتملت بهما حكاية «عين شمس».

مَغْرِب

[⋆]

قبيل الغروب، في تلك اللحظة التي يبدو فيها المقهى أكثر سأمًا من أيّ وقتٍ آخر، فوجئ عزام، نادل المقهى اليماني، بزيارة غير متوقعة لفيلسوف المقهى، كما يسمّيه مرتادوه، وقد اضطره ذلك إلى الإسراع في إعداد رأس الشيشة كالمعتاد، لكن مرعي أشار إليه بيده أن يتوقّف، ثم دعاه إلى الانتظار برهة من الوقت حتى يفرغ من جلسة قصيرة مع أحد رفاقه.

في هذه اللحظة دخل إلى المقهى رجلٌ طويل القامة، يرتدي زياً أجنبيًا، بنطالاً وقميصاً، وقد بدا في صورة أكثر أناقة من أن يكون عاملاً وافدًا فقدّر عزام أنّه أحد أصدقاء مرعي جاء في زيارة قصيرة، لكنها قد تطول فيما بعد هذه الجلسة التي تبدو تمهيدًا لإقامة في القرية مدة زمنية أطول.

ذلك ما دار في خلد النادل الذي استجاب لطلب مرعي تاركًا الخيار الأخير لندائه لاحقاً.

بدا المشهد متناقضًا إذ يجمع رجلاً لا تبدو عليه علامات الثقافة

والتمدّن وآخر صقيل الخدّين، تلمع صلعته في مساحة يحيط بها شعرٌ أكثر سوادًا من طبيعته.

بعد ترتيبات يسيرة نادى مرعي نادل المقهى وهمس له بضرورة إعداد الجلسة على سطح المقهى بعد صلاة العشاء، ثم انصرف مع رفيقه يهمهمان بحديث خافت يظهر أنّه لا يخرج عما يلحّ على ذاكرة مرعي في جلساته المتواصلة التي يعمرها في المقهى بحكاياته وتأمّلاته الفلسفية في تضاريس القرية وعلاقتها بالتاريخ المنسي، المطمور تحت ركام المخطوطات والروايات الموضوعة.

لم يكن مرعي أكثر من متحدّث يجيد النظر في الأشياء بعمق. مع ذلك نقل عدواه إلى كلّ من في المقهى على بساطة فهمهم وتلقّيهم، وكان النادل أكثرهم استيعابًا لطريقته في قراءة الأحداث التي وقعت والتي تقع لاحقاً، ما دعا بقية العاملين في المقهى إلى إيثاره بهذه الحظوة وتفريغه لخدمة مرعي وضيوفه.

من هنا بدا اهتمام عزام بكل حدث جديد يضاف إلى أحداث مرعي المكرورة، وقد كان الضيف حدثًا جديدًا نبت قبيل غروب الشمس على ضفاف المقهى، في لحظة سأم معتادة وخلوة من خلوات المقهى الكئيبة.

في الطريق إلى الناحية الشمالية من القرية كان مرعي يقود مركبته العجوز في تجوال سياحي بين المزارع الخاوية على عروشها، وكان ينظر إلى رفيقه وهو يتحدّث، مشيرًا إلى أطراف القرية المتآكلة:

- انكمشت القرية من هنا تقريبًا، لهذا يمكن لأيّ باحث أن يبدأ برصد الحدّ الفاصل بين القريتين من هذا المكان.

ردّ عرمان متسائلاً:

- لكني لا أرى البئر التي تحدّثت عنها.. هل تقع قريبًا من هنا؟
- البئر التي في المخطوط غير البئر التي هنا، هي مجمع آبار القرية، وتقع بعيدًا من هنا، غير أن المنطقة كلها غنية بالآبار المطمورة، ولهذا حرصت على أن ترى المنطقة هذه أولاً.

قال مرعي ذلك، واعدًا رفيقه عرمان بالذهاب صباح الغد إلى البئرى المعنيّة في المخطوط.

أبدى عرمان امتنانه، وعلّق على ما رأى، قائلاً:

- من المهم رؤية البئر، فهي، في نظري، بؤرة العمل ومنطلق المشروع الكتابي عن القرية. هذا لا يعني بالتأكيد تهميش هذه المعالم خصوصًا السلسلة الجبلية الممتدة.

انحرف مرعي بسيارته في اتجاه معاكس بغية العودة إلى القرية الجديدة، لإكمال الحديث في المقهى.

أثناء انحرافه لاحت له ربوة خالية إلا من بقايا غصون عريش يابسة، فأشار بيده نحوها، وشرع يقول:

- ذلك العريش هو عريش شمس، صاحبة البئر. ورد ذكر العريش في مخطوط البئر إن كنت تذكر، في تلك اللحظة التي التقت فيها ابن المرواني.

هزّ عرمان رأسه، وقال مترددا:

- لا أذكر بالضبط!

كان مرعي يحيل كلَّ مَعلَمٍ من معالم القرية إلى مخطوط البئر الذي سبق أن حدّث به صديقه عرمان في إحدى سفراته بعد أن عقد معه صداقة دامت خمس سنوات نشأ من خلالها تواصل علمي بينهما، وكانا معًا مهتمّين بدراسة الآثار والربط بين المعالم الأثرية والتاريخ المدوّن.

وكان عرمان، فيما يرى مرعي، أشبه بشخصية د. جهاد الزاكي من حيث التوثيق وعدم الاكتفاء بما يحكى في المسامرات من حكايات شفهية، وكان مرعي يراه الجزء المكمّل لأي حكاية شفهية تبحث عن سندها التاريخي، وقد أفاد منه كثيرًا في إعادة الأساطير والحكايات الشعبية إلى أصولها الأولى بفضل قراءاته المتنوعة، ولهذا الأمر دعاه إلى قريته التي يرى أنها تستحق عنايته من حيث الحكايات أولاً، ومن حيث التوثيق ثانيًا، بعد أن أطلعه على مخطوط البئر الذي استخرجه من متحف القرية، وهو مخطوط مشهور بين أهل القرية يرى الجميع أنه يحتوي على حكاية البئر منذ نشأت، ويكشف عن ارتباط القرية بامرأة تركية تزوّجت أحد الأجداد وتعتبر، في نظر أهل القرية، هي بداية التكوين.

على هذا الأساس كانت زيارة عرمان لقرية عين شمس، بدعوة خاصة من صديقه مرعي الذي رغب في أن يطلعه على القرية

وتضاريسها وبئرها بعد أن أهدى له نسخة مصوّرة من مخطوط القرية المحفوظ في المتحف الأثري.

بعد أن قرأ عرمان المخطوط لفته في الحكاية تكرارها في صيغ مختلفة، فاستغرب هذا التشابه بين الحكايات، فدعاه ذلك إلى إبداء رغبته في زيارة عين شمس، الأمر الذي رحّب به مرعي ووعده بتذليل سبل الزيارة للوقوف على القرية ومشاهدتها معاينةً حتى يتمّ له الربط بدقّة بين الأحداث الواردة في المخطوط ومعالم القرية؛ للوصول إلى نواة الحكاية وأصلها من بين الحكايات المتشابهة.

[★★]

في جلسة خاصة أعدّها عزام،نادل المقهى، لمرعي ورفيقه،بدا كلّ شيء محفّزًا لحديث استثنائي حول معالم القرية وعلاقتها بالتاريخ المدوّن، وبرغم أنّ عرمان لم يكن في حاجة إلى مؤثرات خارجية تدفعه إلى حديثه المفضّل حول هذه العوالم الفسيحة، كما يصفها دائماً، إلا أنه ازداد ارتياحًا في هواء القرية الطلق الذي لا يعكّره سوى الدخان المتصاعد إلى أعلى من شيشتين متناظرتين هما معقد التواصل بينهما.

حين يتحدّث أحدهما ينصت الآخر في تأمّل لا يسمع فيه سوى خرير الماء في أحشاء الشيشة تاركًا فرصة الحديث كاملة حتى ينقضها برأي أو فكرة أو تأمّل جديد.

لم يخف عرمان سعادته بما لمسه من تقارب بين الحكايتين رغم ما يبدو من اختلاف ظاهر في بعض التفاصيل والأحداث ، حين علّق على المخطوط:

- بدا لي أنّ مخطوط القرية لشخصين مختلفين، أو هما مخطوطان أدمجا في أصل واحد، الأول يبدو سيرة أدبية أكثر من كونه تاريخ مكان، أما الثاني فأقرب إلى كتب

التاريخ التي توثّق الأمكنة بعناية، لكن لا غنى لأحدهما عن الآخر في الكشف عن أصل الحكاية الشفهية التي يتداولها أهل القرية عن الجدّ الأول.

وبحكم عناية مرعي بالتاريخ الشفهي، المرويّ على ألسنة كبار السن، قال، بعد أن أكّد كلام عرمان:

- لا شك في ذلك، لكني أرى أن تكون الرواية الشفهية هي الأصل الذي تستند إليه الكتابة وليس العكس.

عقّب عرمان:

- الأصل أن تكون كذلك، غير أنّ هذا في حالة ما إذا وقع اتفاق على الأصل الشفهي، أما في هذه الحالة فالمدوّن هو ما ينبغي أن يكون المستنَدَ لإثبات أصل الحكاية.

فردّ مرعي، بناء على الطريقة نفسها:

- لكن المدوّن نفسه غير ثابت، ومختلط، وبعضه منسوخ بأقلام كَتَبَة مجهولين، ما يجعل الأمر كلّه في محلّ الشك وإعادة النظر.

هزّ عرمان رأسه موافقًا، مع استدراك وتوضيح:

- ذلك صحيح لولا أنّ الاختلاف الأصلي على المرويّ وليس على المدوّن؛ فالمدوّن من تاريخ القرية لا يتجاوز مخطوطًا مركّبًا يمكن السيطرة عليه وإدماجه في حكاية واحدة تكون هي الأصل للروايات الشفهية المختلفة.

بدا مرعي مسلّمًا بالأمر، على عدم رغبة في ذلك، حين قال:

- الأهم من كل ما قيل بشأن المتن، أن نثبت التطابق بين الشفهي والمكتوب، وأن نقف على مدى صحة ما يتناقله الرواة عن شمس التركية، هل ما ورد في المخطوط كان على وجه الدقّة فعلا ؟
- نعم، والأهمّ منهما معًا أن نرصد الملامح المشتركة بين المخطوطين أولاً، ثم بين ما ورد فيهما وما حدث واقعًا في تاريخ هذه القرية.

[★★★]

على قُفِّ البئر جلس عرمان، دلّى قدميه وألقى حجرًا يقيس به مسافة عمق البئر. عاد صوت الحجر خاليًا من الماء. وَجْبَةٌ في قاع صلد لا يشي برطوبة. قال مرعي: «لا شيء في أعماق البئر سوى ثعابين لما يحن خروجها بعدُ. في المساء تبدو البئر أكثر وحشة وذات فحيح عميق».

نظر إليه عرمان، فقال، بعد أن ألحق الحجر بنظرة خاطفة:

- الآبار هي موطن سرّ الماء. قد تظنّ أنها جافة لكن الماء مندسّ في أعماق الصخور؛ فالأرض تحتفظ في أعماقها بماء المطر فترة طويلة قد تزيد على عقد أو عقدين، وهي كذلك بالنسبة إلى كل ما يوضع فيها، ألم تقل إنّ مخطوط القرية استخرج من أعماق البئر في زمن شحيح بالماء؟
- بلى، ولكن ما دخل هذا بذاك؟
- حين يغيب الماء يحضر غيره، فالبئر التي يغور ماؤها في الأعماق، تعوّضه بنفائس أخرى، وهذا ما حدث لبئر القرية.

قال عرمان ذلك، وأردف:

- هذا يجعلني أتنبّأ بما في أعماق هذه البئر، فهي قد تكون خزانة مخطوطات أو آثار مخبوءة تتعلّق بتاريخ القرية القديم إلى يومنا هذا.

ردّ مرعي، موضحًا أنّه لا فائدة اليوم من كلّ ما يتعلّق بتاريخ القرية:

- بعد أن استقرّ في أذهان الناس أن مخطوط البئر هو الكنز الوحيد الذي تمّ العثور عليه فيما يخصّ زمن التكوين، اعتبر كلّ مخطوط لاحق تقليدًا أو افتعالاً لتغيير تاريخ القرية حسب رغبة الباحث الجديد وأمنياته.

فقال عرمان، وهو يجول بنظره في فضاء القرية الخالي:

- حسنٌ، لنقرأ المخطوط معًا هذه الليلة، فقد ظهرت لي كلّ معالم القرية واتضحت الصورة أجلى في مخيّلتي من قبل.

فور ذلك، نزع عرمان قدميه من قف البئر وقفز باتجاه الأرض، تاركًا له مساحة أوسع لركض رشيق، قابله مرعي بحركة بطيئة، الأمر الذي دعاه إلى التعليق قائلاً:

- البطء قرين التأمّل فلا تتعجّل في الحكم على المخطوط، إذا كنت ستقرأ النصَّ بطريقة القفز هذه!

[★★★★]

حين فرغ عرمان من قراءة المخطوط كاملا،سواء ما يتعلّق بنسخة البئر أو النسخة الجامعية، قفزت إلى ذهنه فكرة أن يبدأ من تجلّيات البئر في الثقافة الإنسانية بوصفها رمزًا للمتن المعرفي العام في تاريخ الثقافة.

نظر إلى البئر من هذه الزاوية حين قرأ توافق المخطوطين على جعل البئر خزانة للأسرار العلمية، مع ما ورد من إشارات إلى فكرة الاستنباط والقراءة، في حكاية هدهد سليمان الذي جاءه من سبأ بنبأ يقين.

بدا له الهدهد طائرًا عميق النظر، فوصفه بالطائر الاستنباطي، استنادًا إلى ما ورد في آية سورة النمل، تحديدًا عند موضع السجدة القرآنية:﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [النمل: ٢٥].

علّق عرمان على ذلك بقوله:

«من هنا جاءت فكرة الاستنباط، وهو في أصل اللغة استنباط الماء من باطن الأرض، انتقلت الفكرة بعد ذلك إلى متون العلم والمعرفة،

وهذا ما يجعل المخطوط صورة أخرى للبئر من حيث حاجتها إلى الأسرار والاستنباط.

شمس أظنها في المخطوط تحتمل أكثر من امرأة غائبة أو عابرة سبيل، فقد وردت أيضًا في مشهد الرؤيا تميل إلى جهة الغروب وهي صورة مكملة لغيابها في مخطوط البئر، إذ وردت في مخطوط الجامعة بتفاصيل أخرى لا علاقة لها بخازنة البئر التي تركت العريش في زمن المحل».

ما بدا لعرمان من مشتركات بين المخطوطين كان أكثره متعلّقًا بأساس الحكاية في لقاء شمس بالمرواني، مع تغيير في الأسماء والمكان الذي لا علاقة له بقرية عين شمس.

لفت عرمان صديقه مرعي إلى ذلك مؤكّدًا أنّ احتمال كون القصة بكاملها في قرية عين الماء باتجاه الشمال من جهة الأردن أمرٌ وارد، خصوصًا أن تلك العين كانت أكثر شهرة من عين شمس، بحكم أنها قريبة من ماء مدين، وهي بئر أعرق في تاريخها من بئر المخطوط، لكن كل ذلك ليس مهمًا إذا ما حُملت البئر في دلالتها على كلّ بئر تعطّلت منذ زمن بعد سقي طويل، وهذا التأويل يفتح كل الاحتمالات لتكون عين شمس أحد الخيارات التاريخية لهذه الحكاية التي سردها المخطوط، سيرة وتاريخاً.

أمام هذه التأويلات المختلفة والمحتملة في الوقت نفسه، لم يملك مرعي سوى العودة إلى ذاكرة القرية الشفهية، طالبًا من عرمان

الإذن في أن يسرد له قصّة العين كما سمعها من رواة القرية القليلين الذين لا تختلف رواياتهم إلا في تفاصيل يسيرة لا تغيّر مجرى التاريخ تغييرًا جذرياً.

[★★★★★]

كما لو أنّ المخطوط يعود كرَّةً أخرى إلى حالته الأولى، سيرة شعبية تستند إلى المشافهة، بدا أنّ مرعي وهو يقصّ الحكاية، كما وردت في ذاكرة القرية، يجرّدها من كلّ ما عَلِقَ بالتدوين ليتقمّص دور حكّاءٍ بدويّ خبير بأسرار القرى، فالقرية كانت، حسب الرواية الشفهيّة، مجمع سيول بجوار الجبال الممتدة، لكنها مع ذلك كانت تفتقد الماء الكامن في أعماقها، وهنا بدأت حكاية شمس التركية التي عَبَرت القرية على هودج العرس بصحبة الجدّ الأوّل مرعي حين أناخ في القرية فبدأت قصّة التكوين.

مرعي، حسب أشتات الروايات الممزقة على ألسنة البدو، كان سيّد قافلة في الصحراء تقوم بحماية الحجاج من قطّاع الطرق، وهنا تختلف الروايات بعض الشيء، إذ يذهب بعضٌ منها إلى أنّ قافلة مرعي كانت تمارس السطو قبل أن يلتقي مرعي التاجر التركي الذي استطاع بحكمته أن يحوّل القافلة من مجموعة قطّاع طرق إلى قافلة أدلاء نحو البيت الحرام.

بسبب هذا الاختلاف حدثت خصومات بين فرعين من فروع

القبيلة التي تسكن القرية، إذ يفسّر أحفاد مرعي ذلك بالغضّ من جدّهم، في حين يبرر أولئك هذه الرواية بانتشار الجهل وسيادة منطق القوّة في ذلك الحين، بل يرون ذلك من تمام الفروسية.

لم تكن القرية لتولي هذه الحكاية اهتمامها لولا هذا النزاع الذي أخذ طابع التحدّي، فدعا أبناء القرية إلى البحث عن أصل القصة، فامتد ذلك إلى سيرة مرعي منذ وُلِدَ وحيدًا لأبويه، مع ما تبع ذلك من أساطير وحكايات، أبرزها حكاية سقوطه في البئر ونجاته بأعجوبة من الموت بفضل رجلين كانا قد عبرا الطريق وأرادا الاستراحة بجوار البئر.

حينذاك تدلّى أحدهما يتحسس البئر فسمع أنيناً يتصاعد كان في طرفه مرعي الذي خرج فيما بعد بمساعدتهما، ثم أكمل مسيرة حياته، فصارت نجاته بهذه الطريقة مصدر إلهام لحكايات عديدة وأحداث غير مألوفة، أبرزها ما يتعلّق بخازنة البئر، المرأة التركية التي تزوجها بعد وفاة أبيها فلم ينجب منها للقرية سوى البئر التي ظلّت زمنًا تفيض بمائها حتى نضبت، غير أنّها من جهةٍ لم تنضب من الحكايات، وكانت آخرُ حكاية فاضت بها حكايةَ المخطوط.

بعد أن فرغ مرعي من قصّ الحكاية في أصلها الأساسي مع تجاوز كثير من التفاصيل المختلف حولها، عقّب على حكايته، بما يؤكّد أن مخطوط البئر يبدو مستلهمًا لهذه الحكاية في سرد حديث، قد يضعه موضع الشك، إذ يحتمل أن أحدًا أعاد سيرة القرية الشفهية لإثباتها في مخطوط مزيَّف، لكن يبقى مخطوط الجامعة موضع نظر

ومحلّ إشكال، خصوصًا فيما يتعلّق بالملامح العامة التي يشترك فيها مع مخطوط البئر.

لم يبدِ عرمان اعتراضًا على هذا الرأي، لكنه عقّب بسؤال جدير بالنظر، حين التفت إلى صديقه، متسائلاً:

«ألا يمكن أن تكون الحكاية حكاية كلّ قرية نبتت على ضفاف بئر؟».

[★★★★★★★]

جلس مرعي في المقهى وحيدًا، يرصد بعينين ثاقبتين حركة الزبائن، وفيما هو ينفث دخانًا كثيفًا يرى من خلاله ملامح قرية غير بادية المعالم، تساءل عمّا إذا كان في وسعه الكشف عن تاريخ هذه القرية النائمة على قارعة الطريق، وفي مخيّلته تعبر أحداث بعيدة يودُّ القبض عليها وسؤال كلّ من عَبَرَ الطريق عن حكاية البئر، وعن شمس، وعن السرّ الذي جعل القرية تحمل هذا الاسم من بين الأسماء المحتملة لمكان يمكن أن يتخذ أيّ اسم آخر غير عين شمس.

هاجس القرى النابتة على ضفاف الطرقات العابرة يسكنه منذ تلك اللحظة التي سمع فيها حكاية القرية على لسان أحد كبار السنّ قبل ثلاثين سنة.

يذكر أنّه حين سمع الحكاية تطلّع إلى اكتمالها بشكل أفضل مما هي عليه في حكاية الراوي البدوي.

شيء كان يهجس في داخله رغم صغر سنّه أنّ حكايات الأجداد غير مكتملة، وقد أدرك ذلك حين كبر وتعلّم بفضل قراءات معمّقة

في التاريخ الحضاري للمدن والقرى بعد انضمامه إلى الجامعة طالبًا وباحثًا في الماجستير.

يجلس هذه اللحظة في مقهى شعبي معرضًا عن كلّ ما تعلّمه في الجامعة، منشغلاً بترتيب أمور دنياه وبإرسال طبقات من السحب الدخانية إلى أعلى متقمّصًا شخصية فيلسوف وحكّاءٍ بدويّ، غير آبه لأنظار العابرين التي تضعه على حافة الجنون، أو على حافة بئر معطّلة من الحياة.

حين غادر صديقه عرمان إلى بلاده، بعد محاولة رصد لتاريخ القرية، لم يجد مرعي ما يثلج صدره أو يرقى به إلى منزلة من اليقين يمكن التعويل عليها، بيد أنّه كان سعيدًا بما آل إليه اللقاء من محاولات علمية شعر من خلالها بالانتماء إلى قريته المنسيّة تحت ركام التاريخ القديم.

وبعد أن سَحَب النّفَسَ الأخير من ليّ شيشته، خُيِّلَ إليه أنّه ينفث تاريخ القرية في عين الشمس!

انتهت

أوَّلُ النبع

[ذكر أحد رواة البادية أنّ قرية «عين شمس»، الواقعة شمال مكة، على طريق الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، قد سُمّيت بهذا الاسم نسبةً إلى امرأة تُدعَى «شمس»، قامت بحفر بئر ماء على طريق القوافل، فنُسِبَت لها العينُ التي نمت حولها القرية وسُمّيت باسمها]❊

صدر للكاتب

- خارج العالم (رواية)، دار وجوه، الرياض، ٢٠٠٨ م.
- تأويل النص (دراسة نقدية)، دار الأعمال، جدة، ٢٠٠٨ م.
- ساعة الرمل (رواية)، دار أثر، الدمام، ٢٠١٢ م.
- صناعة البيان (دراسة نقدية)، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ٢٠١٣م.
- حلم له طعم البلاد (مجموعة شعرية)، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ٢٠١٣م.
- الساحلي (رواية)، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت ٢٠١٥ م.